أحمد الملك

الزمن قبل غارة الأنتينوف

رواية

الحضارة للنشر

الزمن قبل غارة الأنتينوف

رواية

أحمد الملك

أحمد الملك: الزمن قبل غارة الأنتينوف (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67
www.alhadara.com

لوحة الغلاف إهداء من الفنّان: كمال هاشم

الطبعة الأولى: يوليو 2015

رقم الإيداع بدار الكتب 14593 /2015

ISBN: 978-977-476-240-2

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جبل يحيّرني سكونك
حين يرتاد قمتك العلية عصبة الأنذال،
أشباه الرجال
ويدنسون قداسة ما كان يمكن أن تدنس
أو تنال!

حسن عثمان الحسن – شاعر سوداني

ملّيت تباريح الجراحات البقت
بعدك أسى وزمناً قسا
وحالاً أسيف
ومشيت أفتش عن خطاويك القبيل
واضّارى من زمناً
وراك ملانى خوف
أشتقت ليك ..
اشتقت أرتاح فى عيون
فيهن ملامحك ذاتا
من غير أىّ .. زيف
وإشتقت لى ضحكة صباحك
والدعاش عطر رزاز مطر الخريف
أنا وإنت والدنيا الزمان
الناس وفا وغنوّة صفا
ودفء المشاعر الشاتية صيف
أنا وإنت والدنيا الزمان
زمن الغناوى الطالعة من قلباً
رضى وحسّاً ندى و زوقاً رهيف
أنا وإنت والدنيا الأمان

الشاعر صلاح حاج سعيد والفنّان الراحل المقيم: مصطفى سيدأحمد

إهـــــداء:

إلى أصدقاء ثمانينات القرن المنصرم، آخر عهود الزمان الجميل:
طه ولد حاج محجوب ومصطفى أنقراوي، عبدالله يوسف، الطاهر ود إبراهيم، عبد الحفيظ ومحمد صالح أحمد فتح الرحمن وعلي حواء وعبدالرازق عمر.

إلى ذكرى العم الراحل، رجل البر والإحسان، الحاج عبدالله الحاج محمد.

إلى ذكرى الراحلة والدة الجميع: سعيدة عمر نوري. كيف سيكون شكل تبو بدون وجهك الطيّب، بدون قلبك الكبير؟

إلى الصديق الكريم المفضال، إبن مدينة دنقلا: أحمد عبد الكريم عبدالله

رسالة وحيدة، كتبتها بمداد الشوق لأيامك الجميلة، لأيام جلوسك في المتجر، غارقا في قيظ الساعة الثانية بعد الظهر، تواجه العالم بقلبك، ضاحك كعادتك، رغم أن الزمان لم يعد هو الزمان، ورغم الضجيج من حولك، تقاومه بمزيد من المحبة، بمزيد من أحاديثك الشيقة وإبتسامات قلبك التي تضيع دائما في ضجيج ماكينات الخياطة وزعيق باعة الخضروات، وصراخ سائقي عربات الأجرة.

رسالتي الوحيدة أرسلتها لك قبل سنوات، ربما لا تزال تزحف بحثا عنك من يد إلى يد، من ساعي بريد إلى ساعي خير، حتى إكتسحتها رياح العولمة.

لكننا لا نزال نمسك بأشواقنا الكلاسيكية، حيث لا ينقصنا سوى رؤياكم الغالية!

والتي نتمناها على الدوام.

الزمن قبل غارة الأنتينوف

1

فجأة سمعنا صوت إطلاق رصاص كثيف من على البعد!

كانت ليلة عيد الفطر، العالم يبدو رائعا وناصعا كأنه خُلق في تلك الليلة، هواء الليل مشبع برائحة وضجيج الغرباء، كنت أقطع شارعا طويلا يقبع نجم أحمر في نهايته، أشعر بالناس والأشياء من حولي لكنني لا أرى شيئا، تحس بوجود الأشياء وهي تسبح من حولك في مداراتها، أصوات الأشياء والإحساس بوجودها كان أقوى من مجرد رؤيتها. كأن العالم كان بالفعل كما قال أحد رفاق تلك الليلة، مثل شخص محتضر، يبدو فجأة في لحظاته الأخيرة مليئا بالحياة كأنه سيعمّر ألف عام أخرى، بينما النهاية تقترب بخطى حثيثة من حولنا.

فجأة دوى صوت أذان في القفار، بدأت الأشياء تستعيد وجودها، أشجار السنط تأخذ أماكنها، طرق الحمير والبغال تتشق في الأرض في كل الاتجاهات. جدران البيوت تبرز في رماد ضوء النجوم. لم استطع تبين ان كان الصوت هو أذان العشاء أم الفجر، شيء ما مصاحب للصوت لم نستطيع تحديده كان يوحي وكأن الزمان انتهى، وأن كل شيء يحدث في اللحظة نفسها وفق زمان خاص بكل شيء على حدة. صوت المؤذن نفسه لم يكن يوحي بأنه يعرف إلى أية صلاة كان يدعو الناس، لكنه كان مثل شخص استيقظ فجأة من النوم ولم يجد وجهه، فقرر أن يشرك العالم من

حوله في حلم الرمال المتحركة التي كان غارقا فيها دون أمل . انتظرت لحظات ألتقط فيها أنفاسي وأعطي الأشياء الفرصة لكي تكمل خروجها من العدم إلى أماكنها التي وجدت فيها منذ الأزل. عندها رأيت في ضوء النجوم الباهت رفاقي في الرحلة، تبدو عليهم لحظات التحول، سمات موتى عائدين من رحلة بعيدة لا يزال غبار نسيانها عالقا في أهداب عيونهم.

خرجنا مجموعة من البشر، لم يجمعنا شيء سوى الصدفة، رغم أن أحدنا سيقول: نبدو مثل شياطين أطلق سراحها، ألا تعرفون أن الشياطين يطلق سراحها في هذه الليلة بالذات؟ كلما تقدمنا خطوة إلى المجهول كنا كأننا نولد في عالم جديد، يختفي كل شيء من خلفنا، عاصفة الليل التي كانت تقتفي خطواتنا، كانت تخفي كل أثر للحياة التي تركناها وراء ظهورنا. مثل ستار ضخم ينسدل من خلفنا ويحيل الماضي الذي كنا نحث خطانا بعيدا منه إلى رماد.

لم نفكر كثيرا فيما قاله الرجل، لم تشغلنا قضية هل نحن بشر أم شياطين، لم يشعر أحدنا أن تلك كانت مشكلة، كان يستحوذ على تفكيرنا شيء لا نستطيع حتى تحديده، كأننا نبحث عن طفل تائه، كنا نمشّط كل شيء حولنا، نتشمم بأنوفنا مثل كلاب الصيد، نركّز أبصارنا على السماء أكثر من الأرض، حتى حين نتفحص الأرض ونختبر التربة الرملية التي تغوص فيها أقدامنا كنا نفعل ذلك فقط لكي نختبر أفضل مكان يمكن أن نقف عليه لنواجه السماء.

كأن التائه الذي غاب عنا، أبحر نحو السماء. كأن السماء هي المسئول الأول الذي يجب أن يوضح لنا نهاية الطريق الذي كنا نسير فيه، كان الدرب الذي سلكناه يتلوى داخل القرى ويسير تارة بجانبها، وتارة يخترق أحشائها حتى نشم رائحة تعفن الحياة في حافة هذا القفر الشيطاني، حيث لا شيء سوى نبات الصبّار الكئيب، يشبه مظهره مظهر الجنود في استعراض عسكري بمناسبة عيد الثورة، ونبات الحلفاء الذي ينمو بفوضى أمام أعيننا، كأنه يقاوم بنموه الفَزِع فوق جداول الماء والأودية، رياح الفناء التي بدأت تهب من أعالي الجبال البعيدة. يزحف الدرب فوق الرمال مثل ثعبان، يشق شجيرات الطندب والحلفاء في حواف الأودية، ويسير بمحاذاة نهر النيل كأنه يبحث عن شيء أضاعه في ضوء النجوم.

كان مشهدنا يوحي بأننا خرجنا لانجاز أمر ما، لكن منظر أي واحد فينا كان يعطي أيضا انطباعا بأننا لا نعرف ماذا نريد والى أين نتجه، لا يجرؤ أحد حتى على التفكير أننا كنا نحاول في الواقع ان ننجو بحياتنا!

فجأة أحسسنا بإقتراب الخطر، من إشارات الصمت العميق من حولنا، من خمود أصوات حركة الكواكب التي كانت ترافقنا، من تراخي أصوات الحياة التى غارت في باطن الأرض، واختفت في الآبار المهجورة والأودية الغارقة في ضباب النسيان، من دبيب أصوات الحيوانات الزاحفة والكلاب الضالة التي كانت تهرب كلها من الكارثة الوشيكة الوقوع. رأينا من على البعد ما يشبه خيطا طويلا من البشر! مثل خط من النمل، وقفنا جميعا وقد انقطعت أنفاسنا ونحن نرقب خيط البشر اللانهائي وهو يعبر في طريقه إلى المجهول.

رد حاج النور على مناداتي له بالشيخ ضاحكا: إنت الشيخ مش أنا، قالوا من ما كنت صغير، كنت بتتنبأ للناس بمستقبل حياتهم، وبتساعد العشّاق لتذليل المشاكل التي تعترض طريق زواجهم!

ابتسمت لفكرة أن يتنبأ بالمستقبل من لا يستطيع حتى تلمس موضع قدمه في اللحظة نفسها، من جرّده الموت من كل ما حوله، دون حتى ان يتنبه لخطوات الموت التي ظلت تنبض باتجاهه. ابتسامة ضاعت في الظلام، الذي تضيئه بحذر نجيمات متناثرة بعيدة، قلت بعد لحظة صمت: كل شيء بثوابه!

قال شيخ النور: طيب ما تكسب ثواب في نفسك، ولا مصّر تخلي باب النجار مخلّع!

يبدو أن شيخ النور شعر بالذنب من صمتي، كأنه شعر أنني كنت أستخدم درع الصمت لأخفي خوفي من المجهول، فقال: يا ولدي الحي أبقى من الميت، ودة حال الدنيا، مرّت سنين طويلة، الحياة ما بتتوقف، الموت والحياة ما بتوقفوا، وجهين لعملة واحدة زي ما بيقولوا.

صمتّ طويلا، شعرت بلساني ثقيلا كأن أحدهم وضع فوقه جبلا صغيرا، نظرت دون أن اشعر إلى أعلى كأنني أستعيد ذكرى الغارة التي فقدت فيها زوجتي وابني، لكنني في الواقع كنت أبحث عن الإشارة التي ظللت في انتظارها منذ سنوات، الإشارة التي سأعرف منها أنه أصبح بإمكاني أن أعيد الزمان إلى الوراء ليبدأ من اللحظة التي سأحددها. عندها حين يصبح بإمكاني قيادة الزمن سأعيد الأنتينوف من حيث أتت، لتلقي بحممها بعيدا،

عندها حين أجد نفسي بجانب محمد وزينب، سأكون الوحيد الذي يعرف أن الزمن عاد سنوات إلى الوراء وأن هذه ستكون الفرصة الأخيرة، سنبق في مكاننا، لن نسرع نحو الجبل، سأقول لبقية المجموعة أن الجبل دونه الموت، سنبقى بجانب هذه الغابة الصغيرة حتى نتأكد من زوال الخطر تماما، سيقول أحدهم، إن لم نسرع سيأتي الجنجويد! لكنني سأقاوم حتى لو اضطررت للبقاء وحدي ومعي محمد وزينب! حين رأيت صورهما في اللحظة الأخيرة قبل هجوم الأنتينوف، تذكرت الهاتف الذي كان ينبهني كل بضعة أيام إلى الإشارة التي ستظهر في أية لحظة، تجاهلت تحذير الهاتف الذي كان يكرره كل مرة: لا تفكر في الموتى! لن تستطيع إعادة الزمن إلى الموت! الزمن يعود فقط إلى الأحياء، الموتى ذهبوا إلى زمن آخر غير مسموح لك بالدخول إليه! فهمت أن العودة إلى ما قبل الغارة ستكون مستحيلة لكنني كنت أصر على المحاولة حتى ان كنت سأهدر فرصتي الوحيدة! التي سيكون ممكنا أن استفيد منها لاستعادة نورا، لأعيد الزمن إلى اللحظة التي جاءت فيها لتعرف إن كنت أرغب في الزواج منها أم أن عليها ان تمضي قدما في مشروعها للزواج.

قال شيخ النور بعد فترة صمت، بدا كأنه كان يقرأ فيها أفكاري:

أول مرة أعرف عبد الفتاح السجمان دة كان بيحب! أنا كنت فاكر انه زول سكران ساكت، قالوا زمان كان عنده طنبور ودائما حائم من بلد لي بلد يفتش البنات السمحات، وكت يلقى بت سمحة يقعد جنب قريتهم الليل كله يعزف الطنبور ويغني! وما يمشي إلا يجوا شباب المنطقة يطردوه. وفي أيام

الحصاد يمشي يقعد جنب الأولاد والبنات في حصاد الشمار، يغني معاهم ويبكي! وكت يكون في عزاء في المسيد، يجي يقعد يسمع تلاوة القرآن ويبكي! والحكمة ما بيصلي! وقت الناس تقف للصلاة يقول ليهم صلوا أنا بأنتظركم في الضل دة! ويحب حلقات الذكر، قالوا يمشي سكران يرقص الليل كله في حلقات الذكر.

صمت شيخ النور لحظات، ثم قال: أنا مستغرب كيف أقنعت بت فاهمة زي نورا دي تعرّس واحد سكران حيران زي ده؟ وفي النهاية كمان بقى مؤتمر وطني، في سكره على الأقل ما ضر زول. لكن هسع، وكت بطّل السكر عشان بقى كوز، أهو سرق البلد كلها. أكيد وكت جاتك تشوف ليها الخيرة، تكون خدعتها قلت ليها الموضوع خير!

قلت مترددا: الحقيقة أنا كنت مجرد فاعل خير، والخيرة دي ذاتها ما بعرف كيف يشوفوها، والزول دة كان صاحبي وزميلي، ونورا كانت زميلتي، وأنا كنت واضح معاها.

قاطعني النور متلهفا: قلت ليها شنو؟

قلت وكأنني أدفع عن نفسي تهمة عظيمة، كنت أشعر كأنني يجب ان أختبئ داخل نفسي من خطر داهم وشيك: الحقيقة هو كان أرسل ليها واحدة من أخواته، لكن نورا لم ترد عليه.

لذت بالصمت قليلا، لا لأستجمع تفاصيل حكاية نورا، بل لأستجمع القوة اللازمة لأمضي في سرد القصة. كنت انظر إلى السماء حين واصلت كلامي

دون أن أعي ماذا أقول: جاءتني في المدرسة، نحن استغربنا لزيارتها، لأنها كانت تركت المدرسة من زمن بعد ما اشتغلت في البلدية.

قال النور: وطبعا هو شافها في البلدية، يكون مشى يسرق ليه حاجة!

قلت: هو أصبح مدير إدارة التعليم في البلدية!

ضحك شيخ النور وقال: سجم التعليم وسجم الإدارة، وبعدين وين التعليم اليعملو ليه إدارة؟ ثم استدرك يسألني: خلينا من الزول دة، إنت قلت ليها شنو؟

قلت: أنا قلت ليها الزول دة بيشرب، وأنا عارف هي من زمان قالت لينا زول بيشرب هي ما بتعرسه، أبوها كان بيشرب بالليل والنهار وكان بيضرب أمها، حياتهم كلها كانت مشاكل! كنت اود أن أمضي في مزيد من التفاصيل حول والد نورا، حول المشاكل التي كان يسببها لأسرته، حول أية شيء يبعدني عن حكاية زواج عبد الفتاح من نورا، لا ألاحظ أنني كنت أهيئ نفسي وأهيئ حتى العالم من حولي لإعادة الزمن، إلى زمن نورا كبديل لفشلي في إعادة الزمن إلى ما قبل غارة الأنتينوف!

نظرت إلى النجوم التي بدت لي تهم بالسقوط فوقنا، كأنها تهرب من جحافل ظلام أو ضوء تتبعها دون هوادة. ودون أن أعي وعورة الطريق الذي أمضي فيه، لم أستطع أن أشرح لشيخ النور أنني كنت أود أن توافق نورا وأن ترفض في الوقت نفسه! كنت أريدها ان توافق على الزواج من عبد الفتاح حتى لا أشعر بالذنب من تركها تنتظرني دون أمل، كان قلبي معلقا بالإشارة التي ستعطيني سطوة مؤقتة على الزمان! وكنت أتمنى أن ترفض دون أن أجد

لذلك تفسيرا ربما لأنني كنت أخشى في قرارة نفسي أن أفشل في استعادة الزمن إلى النقطة التي أريدها كما ظل الهاتف الخفي يحذرني!

رميت بإحدى القنابل التي احملها فوق ظهري، تركت لساني للحظة يتحدث وحده دون أية كابح، وحين تنبهت وسارعت لاستخدام الكوابح كنت قد تأخرت كثيرا، خرج الكلام من فمي: لو كنت أعرف أنّ ما عندها مشكلة مع الشراب أنا كنت ذاتي بعرسها!

إنفجر شيخ النور ضاحكا، بصوت أقوى من الدوي الذي أحدثته قنبلتي، وقال: أنت اقعد أحسب النجوم، وأحلم بالعرس، العرس داير حلم؟ لو داير تعرس كان مشيت خطبت وعرست، لكن أنت الزيك دة هو المؤخر قطر بلدنا دي، داير ليك مية سنة عشان تاخد قرار ولو أخدت قرار ما بتقدر تنفذه!

واصلت كأن شيخ النور كان يتكلم مع جدار المسيد، ألقيت بالقنبلة الثانية، كانت تشبه قنبلة دخان، كأنني قصدت فقط أن تضيع الرؤية في المكان، فلا يرى أحد وجهي وأنا أتحدث عن نورا: أنا قلت ليها الزول دة سكران!

بدا شيخ النور في البداية كأنه لم يفهم ما قلت، كان يحسبني أخفي عيوب أصدقائي بمثل طريقتي في تأجيل اتخاذ أي قرار، ثم فجأة انفجر في الضحك.

اها وقالت شنو؟

يظهر أنها كانت تريد الزواج بسرعة، ظروفهم كانت صعبة شوية والزول دة كان دخل مع ناس الحكومة وأحواله اتصلحت!

استجوبني حاج النور مثل محقق في جريمة قتل: وما لّمحت ليك حاجة؟

ضحكت بحزن في سري، رغم خوفي أن تكشف النجوم المتساقطة ضحكتي. كنت في الواقع أخشى أن تكشف النجوم أنني كنت بالفعل حتى تلك اللحظة غارق في حب نورا.

ما قالت حاجة واضحة لكن قالت بدون مناسبة:

العمر مشي، حننتظر لمتين لغاية الجبال ما تتحرك!

ضحك شيخ النور، ثم قطع ضحكته فجأة كأنه استدرك أن حالتي كانت تدعو للرثاء، تمهل قليلا كأنه يزن ما يريد قوله، ثم قال: بالله أنت راجل! اكتر من دة دايرة تعمل شنو؟ تمشي تخطبك من أهلك؟

كرّرت قولي لأمسح ما دار بعده من كلام من ذاكرة العالم.

قلت ليها الزول دة زول سكران!

قال النور: وإنت مالك؟ سكران من جيبك؟ لا ترحم لا تخلي رحمة ربنا تنزل! داير تحجز البنات، وتعيش حياتك العادية ، وهم ينتظروك لغاية ما القيامة تقوم!

يريد شيخ النور بإصرار ان يضعني في مواجهة النجوم التي كانت تسقط داخل وجهي. كّررت للمرة الثالثة، محاولا بيأس ان أمسح كل ما دار بيننا في الدقائق الأخيرة عن الجبال وغيرها.

قلت ليها دة زول سكران!

طيب خلاص عرفنا انه سكران، وسكره دة داير ليه إذاعة، البلد دي كلها عارفاه زول سكران، وفي كل مرة يسكر لازم يجينا باستعراض جديد، مرة جة دخل المسيد دة بحماره ونحن واقفين في صلاة العشاء! والحكمة نحن واقفين

في الصلاة وهو سكران ويخطب فوقنا من فوق الحمار! تقول عدمنا الدين لامن عبد الفتّاح السكران كمان يجي يوعظنا!

قلت محاولا بيديّ تشتيت الجبل الذي بدأ يتجمع فوق وجهي: وخطب فوقكم قال شنو!

قال لينا ما تضيعوا وكتكم ساكت، قيامة ما في! جدود جدودنا ماتوا وابهاتنا ماتوا ونحن حنموت والحيجي بعدنا ذاته حيموت، والحيجي بعد البعدنا ذاته حيموت والشغلة حتكون مدورة كدة! وأهو بعد الخطبة دي بقى كوز! سبحان مغيّر الأحوال! والكيزان يفرحوا لو لسة مصر إن قيامة ما في! عارفين نفسهم وكت يجي الحساب، حيطلعوا مطلوبين!

صمت شيخ النور قليلا كأنه كان يفكر في شيء ما يخص خطبة السكران، ثم قال سيبك من كلام السكارى، البت قالت شنو وكت قلت ليها الزول سكران، حيران!

ترددت قليلا ثم قلت، قالت: وفي زول واعي الزمن دة بيمشي يعرّس ويتحمّل مسئولية!

في تلك اللحظة اكتشفت ان العبارة نفسها كانت جبلا آخر، رغم أنني لم ألحظ شيئا حين حفظتها في ذاكرتي طوال تلك الشهور!

وضعت يدي فوق عينيّ، لأحميهما من النجوم المتساقطة، لكني كنت أرى النجوم تسقط داخل وجهي رغم يدي التي كانت تغطي وجهي. فجأة تصاعدت في حمى الخطر المحدق بنا من كل جانب، صوت دقات طبول

مكتومة. كانت تتسرب من باطن الأرض، من آبار الماء الجافة المهجورة، من الخيران الجافة ومن الأودية الغارقة في نبات الحلفاء، ورطوبة نوار الليمون.

عندها فقط رفعنا رؤوسنا قليلا من مخابئنا، وبدأنا نتعرف على العالم من حولنا، كأن دقات الطبول التي مضت أمواجها الإعصارية، تغرق العالم من حولنا، كانت تعيد الحياة إلى الصور المحفوظة في رؤوسنا، دون أن نتعرف إلى مناسبة وجودها في ذاكرة نسياننا الجماعي!

تنحنح شيخ النور في يأس، كانت المرة الأولى التي يبدو لي فيها يائسا، كان يميل للتشاؤم أحيانا لكنه لم يفقد الأمل في حدوث تغيير ما، يعيد العالم القديم، بدلا من الخراب الذي يحل في كل مكان. كان الأمل دائما يعقب تشاؤمه، يتحدث عن صعوبة الحياة، عن الجوع والغلاء. عن فشل كل شيء. ثم يقول: بكرة إنشاء الله يعود كل شيء أفضل مما كان زمان، والناس دي تتحاسب كلها على تخريب البلد دة.

تريث قليلا ثم قال: إذا هي أخدت قرارها طيب جاية تشاورك في إيه؟

خفت أن يسقط من جوفي جبل آخر ولا أجد شيئا أمسحه به من الوجود. فلذت بالصمت، لكن شيخ النور تطوع بإحضار الجبل بنفسه.

قال بعد صمت يائس من ردي: في الحقيقة جاتك، عشان تودّع الجبل ! جاية تشوف يمكن في زلزال حرّك الجبل شوية ولا سواه بالأرض!

قلت لشيخ النور: على كل حال أنا مسافر، كنت قررت بعد عودتي إلى القرية، لو طلبوا مني أن انتقل إلى مدرسة ثانية، استقيل واشتغل في الزراعة، لكن الآن، كدت أقول بعد زواج نورا، قبل أن استدرك وأقول: مشيت مكتب التعليم طلبت منهم ينقلوني أي مدرسة في الولاية أو خارجها.

شيء ما كان يمنعني من الاعتراف أنني كنت بالفعل أرى في نورا شيئا يعيدني إلى نفس زمان زوجتي الراحلة، كأن حضورها كان يعطيني سلطة غير مرئية لأدوس على أزمنة الحزن في ذاكرتي، ينبت الفرح في كل شيء من حولي. كنت أشعر أنها الوحيدة التي يمكن ان تعيد ذكرى أيامي السعيدة قبل تلك الحادثة الرهيبة. لكنني رغم ذلك لم استطع أن أقوم بأية خطوة رغم أن نورا كانت تشعر بأنني أرغب في الزواج منها، وكان ذلك السبب الذي جعلها تزورني قبل ان تتخذ قرارها بالزواج، ألمحت لي مرة، كنا نتحدث فيها في أشياء كثيرة، نقترب ونبتعد عن الحب بصورة ما، كنا وحدنا نقوم بتصحيح أوراق الامتحانات، وقد اقتربت نهاية العام الدراسي، حين رفعت رأسها فجأة، وأزاحت كومة الأوراق أمامها، كأنها تريد وضع فاصل زمني بين تلك اللحظة، وما سيحدث بعد ذلك:

أشعر كأن لديك شيء تريد ان تتقاسمه مع آخرين؟

قلت للأسف ليس لدي سوى حزن يكفي لتقاسمه مع العالم كله، وليس مع شخص واحد فقط!

صمتت، شعرت أنها على وشك ان تشعر باليأس من ناحيتي، حاولت أن اخفف من وقع ردي عليها، قلت ربما يجب أن يقاسمني شخص ما هذا الحزن حتى لا أنهار يوما وأنا أحمله فوق كتفي ليلا ونهارا!

لاحظت أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة سرعان ما أخفتها داخل قناع وجهها، كانت معتادة على طريقتي في إغراق المكان حولي بسيل أحزاني الشخصية ومن ثم محاولة أن أمد يدي لإنقاذ الآخرين من الغرق فيه.

قالت وكأنها تتحدث عن موضوع آخر: تبدو وكأنك في انتظار شيء ما!

كان ذلك حقيقيا، كنت بالفعل أحيا على نبض ذلك الانتظار، انتظار ينبض في داخل جسمي بدلا عن القلب.

كنت أنتظر حدوث المعجزة، معجزة عودة الزمن إلى الوراء، إلى ما قبل غارة الأنتينوف. كان الهاتف يزورني أثناء نومي، ويشرح لي في كل مرة الإشارة التي سأراها وسيمكنني حين تظهر أن أعيد الزمن إلى النقطة التي أرعب في أن أبدأ منها من جديد. كان الهاتف يحذرني في كل مرة، سيعود الزمن ولكن ليس إلى الموت. لديك ثلاث فرص، لا تضيعهم في محاولة العودة إلى الموت. لكنني بالرغم من ذلك كنت مقتنعا أنني سأستطيع استعادة اللحظة التي حين تسربت من بين يدي فقدت كل شيء. حين رأيت نورا في المرة الأولى، كنت انظر من خلال النافذة مرتعبا وهي تمد يدها لتصافحني! لم أسمع صوتا غريبا عبر النافذة التي كان عصفور أبو البشير يغرد فوقها، كما شرحت لها. لكنني في الواقع كنت أبحث عن الجبل. فمشهد نورا وهي تجلس إلى مكتبها وكومة الكتب والأوراق فوق المكتب لم يكن ينقصه سوى جبل

تلودي في الخارج، لتصبح نورا هي زينب. وليعود الزمن سبع سنوات إلى الوراء بكل تفاصيله السعيدة التي اختفت وراء الموت.

أرحت رأسي على حصير السعف، كانت دقات الطبول تدوي ببطء في وجهي، كانت تشبه زلزالا عكسيا، زلزال يهز الأشياء ليعيد ترتيب كل شيء في مكانه، زلزال يغربل الأرض ويخرج الصخور من باطن الأرض يعيد تجميع جبل اندثر ودفنت معظم صخوره في زحف الرمال. كان الجبل يتجمع في وجهي، فرأيت زينب يوم جاءت لتنضم إلينا في المدرسة. وهي تجلس على مقعد صغير في ظل شجرة السدر في الفناء بانتظار حضور مدير المدرسة. رأيت بريق عينيها الحزينتين الغارقتين في ضوء الضحى، ووجهها الأبنوسي الجميل، وإشارات ضوء الفجر البعيد القابع خلف حزن عينيها .

2

كنا نسير في طريق طويل يشبه بساطا من أعشاب ضوئية نبتت عشوائيا في الصحراء. أحمل طفلي بين يديّ! كنت رغم أنني أحمله بين يديّ لكنني كنت أبدو كمن يسير خلفه! أمامنا في المتاهة كان يربض جبل ضخم، كنا كلما اقتربنا منه، في مسيرنا أثناء الليل، نراه إقترب منا كثيرا، وحين تشرق شمس الصباح كنا نراه ابتعد مجددا، فنبدأ من جديد مسيرتنا نحوه. كانت القافلة مثل سفينة نوح، فيها نساء وأطفال ورجال وحيوانات. هدفنا كان واضحا أمامنا، وهو الوصول إلى الجبل، لكن لم يكن يبد على أي منا إنه يعرف شيئا عن وجهته. كنا جميعا ننظر بخوف إلى السماء! كأن طائرا مجهولا سينقض علينا في أي لحظة. ربما خوفنا من ذلك الطائر هو الذي جعلنا نسير ليلا ونتوقف أثناء النهار، نخبئ أجسادنا في كل مكان، بجانب جذوع الأشجار، أسفل أشجار الطندب. في قيعان الأودية والخيران الجافة. كان أكثرنا خوفا يدفنون أنفسهم في الرمال. حتى الحمير والكلاب كانت تجهد في إخفاء أجسادها. تمارس كلها سلوكا وقائيا حربائيا، تدفن أجسادها داخل كومة صخور أو بقايا أعشاب تشبه ألوان أجسادها.

فتحت عينيّ على مشهد أشجار الليمون التي نجلس في الأرض بجانبها. وعلى رائحة الجروف الغارقة في الطين حولنا، تحوّل الطفل بين يديّ إلى ورق كوتشينة.

(احسن حاجة عملتو الجوكر هارت!)

قال عبدا لله بعد أن رفع ورقه، يبدو أنه وجد الورق رديئا جدا، لكنه وجد ورقتي آس الهارت ضمن ورقه، فقرر أن يخم الجماعة، مراهنا على ذاكرة الشعب الضعيفة.

قال السر: الجوكر أصلي! اللف والدوران بتاع الكيزان حتى في اللعب، ما تريحونا شوية اقصد ما ترتاحوا شوية، اليوم كله ما بتتعبوا من السرقة!

ضحك الطاهر وقال: اللعب واللبع! الكوز لو ما سرق ما بيلقى نفسه!

أصر عبد الله: يا أخوان أنا سمعت بإضنيني ديل واحد قال سمينا الجوكر هارت!

إنتهره الزين الأحمر: إضنينك انشاء الله تصبح الصبح ما تلقاهن، أرمي البايظ! فسكت على الفور وتوقف عن المحاججة وبدأ يلعب وهو ينظر إلى الزين الأحمر ليتأكد انه لم يكن غاضبا، فقد كان عبدالله ضعيف الجسم لا يقوى على منازلة الزين الأحمر المشهور بقوته الخارقة.

وجدت ورقتي الجوكر ضمن ورقي! يا للحظ السعيد! ورقي جاهز، حين سيصبح دوري في اللعب سأضع ورقي أرضا والكارت الذي سأسحبه سيكون البايظ! هذه المرة الثالثة على التوالي التي اتسلم فيها ورقا جاهزا لا يحتاج لأية جهد حتى لتنظيمه، كل شيء في مكانه! هل تكون هذه هي الإشارة التي أنتظرها؟ قررت الا أفتح ورقي مباشرة حتى لا يلفت حظي العجيب إنتباه أحد. حتى الكارت الذي سحبته وجدت له مكان في ورقي! ورغم ذلك ألقيته أرضا وتركت اللعب يمر. لم ألاحظ أن الزين الأحمر الذي كان يجلس في

الخارج بإنتظار دوره يسترق النظر من الخلف إلى ورقي، كان يظن أنني لم ألاحظ ورقي جيدا، فبدأ يغمز لي، وضعت ورقي ارضا حين جاء دوري. فقد شعرت بالنور الأحمر على وشك أن يخطف ورقي ويفتحه على الأرض!

مددت لشيخ النور بقرص بنادول، كان يشكو من الصداع، كان يعاني من الصداع بسبب توقفه من التدخين بناء على نصيحة الطبيب. وضعه في فمه ونادى على أحدهم ليعطيه كوب ماء. قلت له: كويس انك سمعت كلام الدكتور أخيرا وبطلت السجائر.

ضحك وقال: الحقيقة انا سمعت كلام الدكتور الوحيد البقدر أقابله بدون أدفع قروش: الفقر!، ما سمعت حكاية الزول التعبان وما قادر يمشي بسبب آلام الظهر ، الظهر إنحنى حتى لامس وجهه الارض، الناس وقت يشوفوه ماشي بيعتقدوا انه عميان وبيفتش حاجة ضاعت منه في الأرض! وفجأة بعد زمن بقى كويس، الناس كلها تسأله استعملت شنو، قال ليهم الفقر، قعدت ساكت كدة لا مشيت للدكتور لا إستعملت دواء ، يوم الصباح استيقظت من النوم وجدت ظهري رجع لمكانه! الانقاذ دى عالجت الناس من السمنة وضغط الدم بالجوع، لكن جابت لينا وجع القلب بالمغسة ساكت. السجاير ما بتعمل شيء، هسع حاج سعيد العجوز تراه يدخن وماشي زي الكومر القديم، ولده بيرسل ليه شوية قروش وسجائر من السعودية، أنا أولادي مساكين الاشتغل مدرس والشغال مزارع، نعيد إنتاج الأزمة زي ما بيقولو في الأخبار! قلت لي الطيب ولدي زمان، سيبك من شغل التدريس وسافر امشي السعودية، هناك ذاته ممكن تشتغل مدرس. تعمل ليك قرشين وتبني ليك بيت بعدين البلد دي

ملحوقة. قال لي يا أبوي أنا ما عندي زول يساعدني أسافر لو بعرف زول هناك ممكن يرسل لي دعوة. قلت ليه الناس يتمشي العمرة وبتلقى الشغل وترجع تعمل الاقامة، قال لي: في مخاطرة ممكن يقبضوني وأترحل. قلت ليه لو رحلوك حيودوك الاخرة؟ ما حيجيبوك هنا! وتكون جيت بالمجان. أصلا هو من زمان ما بيحب يسافر، لو قلت ليه أمشي الدكان اشتري لينا سكر، تلقاه قاعد يفكر في المشوار تقول مسافر بلد تانية. وكمان بعد اتزوج بقى اليوم كله قاعد في مكان واحد، ولده الصغير قال لي أبوي يكون راقد في حوش البيت تحت شجرة النيم جنب زير الماء، وكت يعطش يناديني أجي جاري من بعيد أقول يمكن أبوي محتاج حاجة من الدكان، وكت أوصل نفسي مقطوع، يقول لي: عليك الله ناولني كباية موية!

ثم صمت قليلا وقال: هسع سعيد لو جه بشيل منه سيجارة، هو ذاته من ما عرف انا قطّعت فاتورة السجائر، قطع كراعه من المسيد، بقى يجي بسرعة يصلي وقبل يسلّم كويس وأحيانا يسابق الامام في السلام، يلملم مراكيبه وجري على البيت! بالاستعجال مرات يلبس المركوب بالقلبة، الشمال في الرجل اليمين واليمين في الرجل الشمال، والسجائر كله هدية مرسل من السعودية، يعني لو كان مشتريه كان قاطعنا بدري! سلام الله ما كان حيدينا وكان بطّل الصلاة ذاتها عشان ما يجي المسيد.

وبعد دة السجائر البنسون في جيبه، وقت يلقى في زول في المسيد قاعد يلف سيجارة قمشة، يقول ليه عليك الله لف لي معاك سيجارة، تسمع صوته وهو يشحد القمشة تقول عليه زول مسكين ما عنده حاجة. والجيب ملان قروش

وسجائر، انا متأكد عنده سجائر وحلاوة وحاجات كتيرة رسلوها ليه من السعودية، مدتها منتهية وهو محتفظ بيها. وقت يدخن سيجارة، يطلع برة لو في شجر يختبئ خلفه ويدخن، قلت ليه طيب لو إنت عاوز تدخن سيجارة بنقو حتعمل شنو. تدفن نفسك في الرمال؟ ولو لقى ليه سيجارة قمشة او شحد سيجارة من مغترب زائر، تلقاه يمرق من صدره دخان، تقول في حريقة. أنا قلت ليه بكترة الدخان يوم حتدور زي وابور الديزل!

قلت له: الأكبر إنت ولا حاج سعيد!

قال: انا جنب حاج سعيد، زيك جنبي! حاج سعيد حارب في شمال أفريقيا في الحرب التانية ضد ألمانيا وكان شاب، يعني لو أديته الوكت داك عشرين سنة. معناها هسع عمره فوق الخمس وتمانين سنة! زول يصل السن دي في زمن الجوع بتاع الانقاذ دة مفروض يدوه وسام ابن الوطن البار حتى لو ما عمل حاجة من ما ولدوه!

قلت : لكن ما شاء الله يظهر أصغر منك!

ضحك النور وقال: قلبه ميت من زمان، ما كان شايل هم الدنيا، الخمسين سنة الاولى من عمره قضاها عرقي وحفلات، يسكر ويدق الناس. وباقي عمره مشى عرّس بت عمه، العرس ما دفع فيه شيء، عمه قال ليه ما دايرين منك حاجة، ما صدّق مشى ليهم بجلابيته، ودون أن يلتفت حاج النور حواليه أو ينتبه لجلوسنا في المسيد، قال مكررا: شايل جلابيته، وعضوه الذكري! ضحك وقال: في الحقيقة مش شايله، جاريه في الواطة! كان مشهور أن العضو بتاعه طويل طول ما عادي، كنا نلعب شليل في ضوء القمر

زمان، كانت الدنيا بخيرها، المصائب جات مع الكيزان ديل، هسع عظم تلعب بيه شليل مافي، لو لقيت قطعة عظم، الكلاب تقلعها منك، الكلب في زمن الانقاذ بالجوع الا يستند على الحائط عشان ينبح. صمت حاج النور قليلا كأنه يستجمع ذكرياته، ثم قال:

كنا نلعب مرات حوض البول، في زمنكم ما أظن لعبتوها، تقعد في الرملة وتبول وتشيل الطين محل بولك، والفائز البيجيب أكبر وأجمل حوض بول! أها وكت نقعد نبول سعيد دة يمرق ليه مصيبة في الأول كنا قايلين دي كراع تالتة! ما شاء الله جاب خمس بنات، قلنا ليه خلاص كفاية كدة، تربي البنات ديل تدخل بيهن الجنة، قال لأ داير الولد، لامن نصل الجنة نموت بالجوع يعني! قلنا ليه الزمن إتغير ومافيش فرق بين ولد وبت، البت كمان حنينة، وبتقرأ وتشتغل أحسن من الولد، قال وين شفتو ليكم بت إغتربت؟ تقول كان شاعر ان الدنيا حتتغير ، قال الدينا ما معروفة والبلد دي ما حتمشي لي قدام، لو ما عندك زول برة البلد حتكون المعيشة صعبة. جاب الولد، الولد دخل المدرسة، وما شاء الله كبر وإمتحن وكان شاطر جاب نتيجة كويسة، قلنا ليه خلي الولد يمشي الجامعة، قال لأ درب القراية دة طويل والرزق داير السرعة، ولده اتوفق مشى السعودية. كل المجهود العمله في حياته عرّس وجاب الولد دة، ورسله السعودية، وبعد داك من ضل لي ضل. في شبابه مافي عرس في البلد دي لي حلفا القديمة ما حضره، بعدين كان نصيح ولو مزاجه ما تمام كان يفرتق الحفلة، كان زي فارس دة مع شوية اخلاق ، عشان كدة كان دايما ناس الأعراس يخلوه ياكل مع العريس ويشرب احسن

عرقي عشان يآمنوا شره! لأن لو مزاجه كويس ما بيسمح لي أي زول يعمل مشكلة في الحفلة. قبل كدة شيخ علي بتاع اللجنة الشعبية كان سكران وحاول يعمل مشكلة يفرتق الحفلة. حاج سعيد ساقه برة براحة، أداه كفين ونادى الاولاد جهزوا ليه سرير عشان ينوم، وشيخ علي كمان كان فتوة لكن ما بيقدر على سعيد. رقد في السرير بالخوف ساكت لكن داير يرجع الحفلة. سعيد قال ليه الحفلة إنتهت خلاص! وعلي يقول: لكن أنا سامع لي زغرودة! سعيد جاب واحد من الاولاد يراقب علي عشان ما يرجع الحفلة وكت هو يمشي. الولد خاف لو الزول قام ما حيقدر يمسكه، قال لي سعيد: ولو الزول دة قام، أعمل شنو؟.

سعيد فكّر شوية وقال ليه: أجري!

قلت : بالله شيخ علي الكوز بتاع اللجنة الشعبية كان بيسكر ويدق الناس!

ضحك شيخ النور وقال: ولي هسع يسكر ويدق الناس! بس هسع بقى يسكر بالدس، ويدق الناس بالعلن، في السوق بالقانون العامله براه بتاع النظام العام! والحكمة بيجلد ناس عشان لقوهم سكرانين!

تذكر شيخ النور شيئا وضحك، فسألته لماذا ضحك، قال: شيخ علي كان زول شفقان، كنا مرات نمشي نشرب معاه انا وسعيد. يشرب ليه كاس واحد وينادي على الاولاد يجيبوا العشا، سعيد ما بيسكر، داير يشرب على مهله، ويتعشى آخر الليل. قال لي أنا تاني لو الزول دة عزمنا ما بمشي. أها بعد أيام رسل ولده وأصر قال لازم تجوا تتعشوا. أها وكت مشيت لسعيد عشان نمشي سوا، لقيته سكران طينة. قلت ليه الحاصل شنو. قال لي وكت الزول

اصر نجي نشرب معاه، بديت شراب من العصر، عشان وكت نمشي ليه أكون جاهز للعشاء! بقينا بعد داك كلما يرسل لينا، نبدأ السكر بدري ونمشي نختم معاه بكاس واحد والعشاء!

قلت: ولده سر الختم كمان طالع مجنون زي أبوه، يفتش المشاكل مع الناس! مرة كنت بصور في عرس بكاميرا الفيديو. ومعاي زول ماسك لمبة الاضاءة، وبعدين لقيته واقف قدامي يصور بكاميرا صغيرة. وهمه كله يصور البنات، طويل وعريض واقف قدامنا ما قدرنا نصور، وبعدين وكت يصور بيكون بيرقص. قلت ليه لو ممكن تطلع من قدام كاميرا الفيديو عشان نقدر نصور! الزول زعل زعل شديد! قال لي إنت قاصدني! قلت ليه اقصدك في شنو؟ انا ما عندي مشكلة معاك انا بس داير اصور عشان ما بقدر احرك الكاميرا من مكانها لأنها موصلة بالكهرباء وانت واقف قدامنا هنا.

قام طلع من قدامنا وبعد شوية جاني من الخلف وانا قاعد اصور، خبط ظهري بيده زي الباب . قلت ليه في حاجة!

قال لي داير اقابلك برة!

قلت ليه : في شنو!

قال لي عندي كلام معاك. عيونه حمراء الشرر طالع منها، عرفته داير يضربني، ولأن الزول مانع وفتوة، قلت ما اساوي نفسي بعقل السكران! قلت ليه أنا ما فاضي! لو بترجاني لغاية الحفلة تخلص بمشي معاك. قلت لغاية الحفل ينتهي، يا السكران نام، يا نسى الموضوع يا أنا قدرت هربت!

يظهر ما كان مهتم يسمع أنا قلت شنو، قبل أكمّل كلامي قال بصوت عالي: المهم!

ما فهمت المهم شنو. لحسن الحظ جة الزين الأحمر، براحة حكيت ليه الحصل، قال لي أنا بكون قريب منك لو جة جنبك بخليه يندم.

بعد شوية رجع ووقف قريب مني، ونادى لي، ما شاف الزين الأحمر، الزين مشى عليه وسأله: داير حاجة من الزول دة؟ وكت شاف الزين الأحمر اتخلع، لامن السكرة طارت، وقف يعاين للزين تقول نزل من القمر، في النهاية بصوت خائف قال: لأ مافي حاجة أنا بس كنت داير أشوفه عشان لو ما إتعشى نجيب ليه العشاء! ومن اللحظة ديك تاني ما شفته لليلة! .

ضحك النور وقال: عالم تخاف ما تختشي، في الحفلات زمان قالوا الفنان لو مشى ليه زول من حلتنا عشان يجي يغني في عرس، كان بيرفض وقت يعرف دي بلد سعيد، لأن سعيد ما كان بيخلي الفنان يقيف من الغنا لغاية تاني يوم، مرة قالوا الفنان وقف يغني يوم الخميس ، والحفلة استمرت كلما الفنان يقول انا فترت وداير امشي، سعيد يقول ليه واصل، الفنان يخاف من الضرب ويواصل، أها الفنان يغني تلاتة يوم، الغنا في بلد والموسيقى في بلد، فرقة الموسيقى نصهم نايم ونصهم ما قادرين بالتعب، بقوا شغالين بالوردية واحدين ينوموا وواحدين يكونوا شغالين، وواحد منهم يمشي يساعد الفنان في الغناء، الناس سكارى ما جايبة خبر الزول قاعد يغني ولا قاعد يبكي ولا قاعد يشتم الناس واليوم الجابه البلد دي، المهم بس الفنان يكون واقف في مكانه والعازفين ماسكين عصاياتهم وساندين الكمنجات بذقنهم! الفنان في الآخر نام

وهو واقف، تمشي تبشر فوقه تلقاه يسند جسمه فوقك ويشخر، وفي النهاية انتهز فرصة سعيد مشى يشتري عرقي نادى على العازفين وهربوا، بالخوف نسوا يأخذوا معاهم عدة الشغل، الاكورديون والكمنجات والطبلة، قعدت الالات في الحوش سنة كاملة لغاية الأرضة قامت فيها، في الآخر شالهم سعيد باعهم في السوق! وقالوا الفنان عشان خايف سعيد يلحقه في بلدهم، سافر الخرطوم ما رجع تاني الا بعد سنة!

ضحكت وحكيت ما حدث في عرس شقيق الطاهر المغترب، فارس كان ماسك عكاز وواقف فوق الفنان عشان ما يمشي بعد ما نهار اليوم التاني طلع! والفنان بالتعب بقى يهضرب، مرة يغني ومرة يبكي، وفي داخل الاغنية يقول: يا أخوان خلوني أمشي، أنا زول موظف ناس الحكومة بيرفدوني من الشغل. فارس قال ليه: أنا بشغلك لو رفدوك، رد على فارس في الأغنية: أنت ما تشتغل لو بتقدر تلقى شغل للناس!

ضحك شيخ النور، بدت لي ضحكته غريبة، كأنه ضحك لسبب آخر وليس بسبب حكاية الفنان الذي يغني بالقوة التي حكيتها له، كان لا يزال مبتسما في ضوء القمر الشاحب، فيما رياح ليلية خفيفة كانت تحرّك أوراق الشجر في فناء المسيد، فجأة ذابت إبتسامته في الظلام، و قال كأنه تذكر شيئا: شيخ علي وجماعته نهبوا البلد ما خلو حاجة لمسكين، الظلم زاد، والصبر خلاص غلب الناس.

3

بعد صلاة الظهر جلست في الشمس أمام المسيد، كان الوقت شتاء، الشعور بالوحدة في الشتاء يفرض عليك إلفة غريبة حتى مع جراح الذاكرة التي لا تزال تنزف. كأن الشمس التي تبدد برد الشتاء، تعطيك طاقة خفية تقوّي لديك إرادة النسيان.

الناس كلهم في الحواشات لذلك لم يحضر صلاة الظهر سوى عدد قليل ، بسبب الانشغال بالموسم الزراعي لم ألتق معظم أهل القرية منذ وصولي قبل أيام، حين تسأل من تلتقيهم عن الموسم الزراعي تكتشف أن لا أحد تقريبا يذهب إلى المزارع، سوى عدد قليل بجانب بعض كبار السن، بسبب مشاكل الزراعة الكثيرة هجرها الشباب وتوزعوا بدلا من ذلك في الفلوات أملا في العثور على قطعة ذهب، يبدو أن العثور على الذهب أيضا ليس سهلا لكنه أصبح على كل حال مهنة حتى وإن كانت تدر دخلا قليلا. سألت شابا صغيرا إلتقيته في طرقات القرية كيف يسير موسم الزراعة فأخبرني أنه ترك الزراعة منذ أعوام. وأنه يسافر إلى مناطق البحث عن الذهب، سألته عن الكمية التي يعثر عليها هناك، فقال أنه يحصل شهريا على مبلغ يغطي فقط منصرفاته الشخصية .

أليس ذلك قليلا، قلت بخيبة أمل من كان يعتقد أن الباحثين عن الذهب يجنون ثروات طائلة

قال لي (لكن حين كنا نعمل في الزراعة لم نكن نجد شيئا ولا حتى ربع هذا المبلغ(!

تشعر في شتاء القرية بنوع من العزلة تخترق حتى عظامك، صوت الرياح الباردة يدوّي في طرقات القرية، تسمع اصوات حياة لا تراها، صوت غناء العصافير المهاجرة، فوق حقول القصب، صوت هديل القمري في ساعات الضحى، تشعر كأنك صوفي أو راهب يعيش على حافة عالم على وشك أن يتلاشى في طوفان ضوء اسطوري غريب. جاء بعد قليل فارس المجنون، كان يبدو سعيدا، أول شخص أراه سعيدا منذ وصولي إلى القرية. سألته عن سر فرحه فأعلن: خلاص الانتخابات قربت!

قلت له وانت مالك ومال الانتخابات؟!

قال لي: مالي ونص. ونظر حوله وقال: ما شايف الحالة دي واقفة كيف، نجيب المال من وين؟

إعتقدت في البداية أنه سيقوم بجمع التبرعات من المتعاطفين مع حملته الانتخابية، قلت له: أها وبرنامجك الانتخابي شنو؟

وضع جركان العرقي جانبا وقال: برنامجي من كلمة واحدة بس: التأصيل!

أها قلت له وحتأصل شنو يعني؟ وهو فضل حاجة ما إتأصلت لسة؟

قال أي حاجة، الجماعة ديل عملوا تأصيل حتى للسرقة سموها تمكين، أنا كمان داير أعمل التأصيل حقي، يمكن تأصيلي يكون مضروب شوية، أقرب للصيني، لكن أكيد ما حيصل مرحلة السرقة تبقى تمكين وكدة.

قلت له أنا داير أعرف بالضبط إنت حتقول شنو ، أفرض أهو قدامك مكرفون، ودي الاذاعة و التلفزيون، ورينا حتقول شنو للناس عشان تديك صوتها في صندوق الانتخابات؟

قال مبتسما: الصناديق دي الله أعلم نصلها! لكن عموما أنا برنامجي أي شيء يرجع أصلي زي ما كان، قبل ما الجماعة ديل يجوا ينقذونا.

يعني إنت ما قاصد التأصيل بتاع الجماعة، اللي هو جايي فيه الجانب الفكري و.....

قاطعني: بلا فكري بلا بطيخ، البلد كلها إتملت عمارات بالتمكين، ورِيني الفكري شنو في شغل الهمبتة الماشي في البلد دي، أكثر من مائة مليار قروش البترول الدخلت البلد دي، لو سألتهم ودوها وين هم ذاتم ما عندهم ليك إجابة. ياها دخلت التمكين بتاع التأصيل الفكري بتاعك دة.

قلت ليه تقصد شنو يعني إنك يمكن ما تصل الصندوق؟

ضحك بصوت عال وقال: والله بصراحة أنا جادي أخش الانتخابات دي وبكرة دي ح أمش أسجل نفسي في لجنة الانتخابات، كلمت ناس الحلة حيمشوا معاي عدد من الاخوان، غايتو حنخسر شوية ندفع ليهم حق المواصلات وحق الفطور لكن كله يهون في سبيل التأصيل الأصلي، مش الصيني بتاع الكيزان!

قلت ليه أيوة أنا فاهم إنت جادي لكن هل في إحتمال مثلا ما تواصل الانتخابات؟

ألصق سيجارة القمشة بلعابه ووضعها في زاوية فمه ونظر لها (بقعر) عينه، كأنه يتأكد أنها موجودة في مكانها، ثم اعلن:

والله الجماعة ديل طبعا لو إنت بقى عندك شعبية وفي إحتمال تفوز على مرشح الحكومة قالو ممكن يتفاوضوا معاك!

ضحكت انا هذه المرة وقلت: حتقبض يعني وتتنازل!

ابتسم وقال: إنت ليه تسميها قبض ورشوة والعياذ بالله، ما هو نحن كدة كدة القريشات النهبوها الجماعة ديل لازم نرجعها. انا لو لقيت منهم قرشين وانسحبت، اها لو جيتني انت عيان ولا في الحلة في زول محتاج قريشات يودي ولده المدرسة ولا زوجته عاوزة تولد ولا واحد عنده ملاريا، بقصر معاهم في شئ؟ وانت عارف البلد دي لو مرضت وما عندك شيء وجيرانك تعبانين، بس ترقد تنتظر الموت. واهو كدة بضاعتنا ردت الينا زي ما بيقولو في الراديو، مع ان عمرنا ما شفنا بضاعة حقتنا رجعت تاني، اي شيء يخش التمكين دة تقنع منه، تاني الا تلقى قدام الله.

لكن كدة بتكون خنت الناس الاستأمنوك ووثقوا فيك ومشوا ضمنوك والا شنو؟

قال: يا زول الناس دي ذاتها تعبانة وما لاقية شيء في الهيصة الحاصلة، الكيزان دخّلوا الناس في امتحان، الواحد تلقاه اليوم كله يوعظ ويشتم الحكومة بعد شوية يمسكوا على جنبة ، يغمتوا ليه حاجة قبل ما يعدها يكورك: الله أكبر ، سير سير يا الرئيس!، الناس تعبانة، الكيزان جوعوهم واكلوا رزق اولادهم، امس مشيت لشيخ عثمان، الامام، الزول التقي، لقيتو زعلان، قال لي مشينا الاجتماع مع الوزير، بدل نسمع حاجة عن الجازولين المعدوم

والاسعار الغالية ومجانية التعليم الوزير شبكنا: الطهارة والايمان! سن الجاك بي نجاستو منو؟ وشابكننا الله اكبر الله اكبر ما عرفناه اجتماع ولا صلاة عيد! الكيزان قربوا يمرقوا الناس من الملة.

اها وهسع ناوي تتنازل بكم؟

قال: والله حسب السوق!

سوق شنو إنت حتبيع طماطم؟

ضحك وقال: والله طبعا كلما كبّرت كومي من الاخوان كلما القصة عدّلت معانا، لو بقى مرشحين كتار بتكون غالبا ميزانية التنازل واحدة يعني حنبقى فقرا واتقسموا النبقة. وطبعا دة موسم، الناس تعبانة ومافي شغل والكيزان ماسكين القرش بيناتم، الخلق كلها دايرة تترشح، أريت لو يعملوا الانتخابات دي كل سنة بدل أربع سنة! بقت حالتنا زي قصة الزول القالو كان برضو زي حالنا كدة مديون في البنوك وتعبان، لا زراعة نجحت معاه ولا قدر يمرق من البلد عمرة ولا حج، وطبعا لو ما عندك ضهر تروح في حديد، ولو عندك ضهر ووقعت يقولو ليك فنظرة إلى ميسرة، اها خلاص أوامر القبض إتردمت عليه والبوليس بقى متوجه على بيته، ربك رب الخير طلع أمر القبض بتاع سيد الاسم، تلفت حوله حذرا وخفض صوته قليلا قبل أن يلقي بالاسم القنبلة : أوكامبو! اها صاحبنا طوالي مرق عدة الشغل، مكرفون صغير زي بتاع الجماعة أنصار السنة، وبقى يمشي يستلف ليه شوية كراسي ويدق ليه صيوان في أي فسحة ويدوّر المكرفون والبرنامج: تضامن مع رمز الدولة ضد المدعو اوكامبو! اها يتلمو الخلق ويجوه الجماعة يردموه قروش وكواريك ،

لغاية ما المولد إنفض سدد ديونه وبنى ليه بيت كمانبعد زمن قابلته قال لي والله اوكامبو دة، ولا بعرفو من وين، ولا حتى صورته ما شفتها، ولو وقف قدامي ما بعرفه ، لكن خدمنى خدمة ابوي ما خدمنى زيها، اليوم كله ادعي الله يبارك فيه، ربنا يفتحها في وشو شقيش ما يقبل، ويتوفق كمان يمرق باقي لستة الواحد وخمسين. والله لو مرق اللستة كلها نغنا لي جنى جنانا.!

طيب ما يمكن الجماعة واثقين من مركز مرشحهم وما يشتغلوا بيك ولا يتفاوضوا معاك؟

لالا، الجماعة ديل ما بيحبوا زول يقيف قصادهم إنشاء الله معاه نفرين، ديل ناس الاجماع السكوتي يا اخوي، بيحاولوا دايما يظهروا وكأن اي زول معاهم، زول واحد يمرق من إجماعهم السكوتي دة طوالي علماني، عميل، طابور خامس ، مشى إسرائيل، الخ الخ.!

أمس قابلت شيخ ود الفكي، مرشح الكيزان في الانتخابات، الكان بتاع سكّر التموين وقالو سرق السّكر وباعه في السوق الأسود، زول مانع، ريحته سكّر سكّر، مال الحرام نفع معاه، قبل كم سنة كان يجي ماشي جنبك ما تشوفه من شدة ما هزلان، الا يشيل يافطة كبيرة يكتب فيها اسمه عشان تشوفه وتعرفه وكت يجي ماشي في الحلة، الغنماية تاكل عشاه، هسع بقى يأكل عشا ألف زول وبعد دة ينوم خفيف! قالو هو كوز من زمان، حكمة الله وكت كان فقران، كان في حاله، من الجامع للبيت للشغل، قالوا مرات يسكر، وكت يشرب الناس الشافوه قالوا شخصيته تتقلب، يشتم الناس وبلسان بذئ، زمان كان يحب فاطمة أخت الزين الأحمر، إتقدم ليها رفضته، سكت والناس قالت

الزول نسى الموضوع بسرعة اصلا هو ما زول شدايد، بعد فترة جة واحد مغترب إتقدم لفاطمة، يوم عرسها، جة ود الفكي سكران بعد الحفلة إنتهت، وكت وصل، الناس كان بدأت تمشي بعد الحفلة، إتصادف هو وكت جة قعد وسط شلة قدام بيت العرس، كان في نفس اللحظة العروس دخلوها على عريسها، الدنيا كانت دميرة أي صوت في الحلة كلها تسمعه، فجأة سمعنا صوت كواريك العروس! ود الفكي سكران، الناس القاعدين إتذكروا الزول كان داير يعرس فاطمة زمان، وكت سمع صوت الكواريك قال: (نيكها ..ناكها بلاء!)

بعد زمن اها فجأة وكت الجماعة ديل مسكوا البلد، مرقت ليه فجأة كدة دقينة، وبقى متعهد بتاع جهاد ودفاع شعبى، بعد شوية ظهر فجأة بوكس قدام باب بيته، تقول نزل من السما، البوكس اتقلب بعد شوية لاندكروزر من النوع أب جعبات، قلت ليه يا ود الفكي ما شاء الله ماشي كويس، يوم حنجي قدام بابك نلقى طيارة هليوكبتر واقفة! اقال لي لو بقدر أسوق طيارة بجيبها، لكن نحن الماشي في الواطة دة بالتعب نسوقه!.

يوم السبت قابلته فى السوق، ما خلاص الانتخابات قربت لازم يظهر شوية، لغاية يضمن الاصوات، تاني مافي زول يشوفو الا بعد أربع سنين، يقول ليك مشاغل، ونحن محاصرين، وما شاء الله البطن ماشة لي قدام، طيب لو ما كنت محاصر كان بقيت شنو؟ انت يا أستاذ التمكين معناه يعني الزول يبقى ماكن ولا شنو؟. اها لقيته لامي ليه شوية ناس يوم السوق وانا حأعمل وحأسوي، شافني قال لي : مالك قالو عاوز تنافسنا؟ قلت ليه مش قلتو

ديمقراطية. قال لي يا زول انت الشغل دة ما بتقدر عليه. الشغلة دي صعبة أنا خايف عليك في نص الانتخابات تقع تموت، ما تلقى اليسترك!

قلت ليه أنا خفيف، نفر واحد يشيل جنازتي، لكن إنت لو وقعت عشرين نفر ما يرفعوك!

ضحك وقال لي: يا زول نحن دربنا درب الله، الما دايرنا معناه ما داير درب الله!

قلت ليه يا ود الفكي إنت من متين بقيت تعرف درب الله! والله السكّر الكتير خلاك بقيت تكذب وتصدق كذبك ودايرنا كمان نصدقه!

قال لي أسمع نصيحتي وأبعد من الصندوق، الأصوات لو نقصت في صندوقنا الملايكة بتتمها! أحسن تجي تتفاهم!

قلت ليه: وصندوقي فيه الشوك؟ الملايكة ليه ما تجي تتمه! ولا الملايكة تحب السكّر!

قال لي: خليك من السكر والملح! أمشي إتنازل وتعال باخليك تكون مدير حملتي الانتخابية! وبتستفيد بدل تضيع وقتك وتصرف الوراك والقدامك!

قلت: طيب نفرض ما دايرين يدوك حاجة وبقيت مضطر تواصل الانتخابات، حتعمل شنو والجماعة ديل ممكن يقولو عليك إنت ضد شرع الله؟

قصة شرع الله دي بقت ما بتجيب حاجة لأن الناس كلهم عرفوهم حرامية ومستهبلين، زمان كان ممكن يغشونا بالقصة دي. أيام الاحزاب حاجة صفية عمتي ماشة لمركز التصويت، قابلها كوز قال ليها : اها يا الحاجة ماشة تصوتي لي الله ولا لي حزب الأمة؟!

عمتى شديدة تقول عارفة عمايلهم قالت ليه: الله كمان جة نزل الانتخابات؟

إرتفع صوت المؤذن لصلاة العصر، قلت لفارس الذي نفض حذائه وملابسه إستعدادا للذهاب. ما تحضر معانا صلاة العصر.

لكنه إعتذر بأن سليمان الاعرج في إنتظاره ليذهبا لترتيب مشوار الغد للجنة الانتخابات.

قلت ليه الموضوع جد يعني.

إبتسم وهو يغادر: ما تنسونا من صالح الاصوات والدعوات.

4

جلسنا بعد صلاة العشاء، أحضر بعض الصبية أطباق العشاء. لم يكن شيخ النور يبدو سعيدا. قال لي: هل نويت السفر فعلا؟

تمهلت قليلا قبل أن أرد: سأسافر يوم السبت.

صحيح حتترك التدريس؟

وجدت عمل مع منظمة إغاثة تابعة للأمم المتحدة.

صمت شيخ النور قليلا، كأنه يريد فهم فكرة ما، ثم قال: وحتشتغل معاهم شنو؟ إنت طول عمرك مدرس، ما عندك خبرة في أي شيء تاني!

قلت: حأعمل معاهم مترجم!

تعالى صوت نشرة أخبار من جهاز راديو أو تلفزيون في الجوار، إلتقطت الخيط كأنني أهرب من السؤال الحتمي الذي سيلقيه شيخ النور كلما جاء ذكر الرحيل.

قلت له وأنا أمد يدي إلى طبق خبز القراصة: هل استمعت لخطاب الرئيس؟

قال بحزن: صدمت من اهتمام الناس بالخطاب، الناس كأنها تتوقع النجدة من قاتلها! زي زول بيضبح فيك وتقول ليه انا عطشان أديني كباية موية!

قلت: الغرقان يتعلق بقشة!

صمت قليلا، دون أن يمد يده للطعام، كأنه اكتفى بأن نأكل نحن من حوله، ثم قال: الرجل لا يحمل ولا قشة واحدة، الحكومة لا يهمها أمرنا حتى تلقى لنا

بالقش. أقصى ما تستطيع تقديمه لك، أن تساعدك على الموت بسرعة حتى لا تتعذب كثيرا. طلقة رصاص أو برميل متفجرات تلقيه فوق رأسك طائرة أنتينوف، هذا كل ما لديهم لنا. واذا تعذر القتل الرحيم يتركونك تموت جوعا ومرضا ، موت بطئ، لكنك تموت ايضا في النهاية، بعدين الزول دة بيقول في كلام ما أظن هو ذاته يكون فاهمه!.

قلت الصحف تقول ان الخطاب كان معدا لأعضاء حزب الحكومة وليس لعامة الشعب لذلك جاء غامضا!

قال شيخ النور: عملت لفترة مع مؤسسة تبحث عن الآثار في هذه المنطقة. ولأنني كنت أقدم العمال كانت عندي خبرة طويلة في العمل. كان الخواجة يحترمني كثيرا، ويعتمد عليّ في البحث عن الاماكن التي يحتمل وجود آثار فيها. كانت وفود أجنبية كثيرة تزورنا لتفقد عملنا والاطلاع على آخر ما اكتشفت البعثة. كان الرجل يقدمني لهم بإعتباري أفضل من يعمل في البعثة كلها. وكان يقول أنه لولا خبرتي وإخلاصي في العمل ما كان للبعثة ان تحقق اية إنجاز أو تكتشف أي شيء. كنت أشعر بالخجل من كلامه ومن تواضعه، في وقت كانت البعثة تضم أشخاصا قضوا عمرهم كله في البحث والدراسة. لكن هؤلاء الناس يحترمون كل انسان ما دام يجوّد عمله مهما كان مجال عمله بسيطا، فإنه مع مجموع الناس الآخرين يساهم في تجويد العمل وتطويره لي قدام، للأفضل. من يصف الشعب بالجهل هو الجاهل، الانسان المثقف الحقيقي هو الذي يعرف كيف يتعامل مع من حوله، كيف يسهم في تغيير الحال إلى الافضل. هؤلاء لم يسهموا الا في سقوط كل شيء. ودة

يثبت ان ثقافتهم كاذبة. من يسعى لتغيير حياة الناس ويزعم لنفسه تفويضا إلهيا حتى وهو يدخل لقضاء حاجته، لا يمد يده ليسرق أموال الناس وأقدارهم. لا يمد يده ليقتل الآمنين، لا يعطل القوانين التي هي ثمرة عذابات الانسان ومعاناته طوال القرون في رحلة طموحه المضنية نحو العدالة . والغريب أن الأديان التي جاءت اصلا عشان تلبي رغبات الانسان في العدالة، يستخدمها صغار النفوس للتسلط على الناس. الدين اصبح دابة لصغار النفوس، من طلاب التسلط على العباد. من لم يجدوا (فرقة) مع الاسياد الذين تقدموا صفوفنا بعباءة الدين، جاءوا بخدعة جديدة: نحن نملك تفويضا إلهيا! وإدعاء العلم مع ان العلم لم يشهد انهيارا وتراجعا بمثل ما شهد في عهدهم المظلم. خريج جامعة لا يستطيع كتابة رسالة. الدين نفسه يقول أن العلم بحر بدون ساحل. وانك تصل اعلى مراتبه فقط لتتيقن من جهلك. العالم الحقيقي كلما توغل في علمه كلما اقتربت أنفه أكثر من الارض، كلما وعى انه لا يساوي شيئا في هذا الكون العظيم. فيزداد تواضعا. يزداد قربا من كل الناس، ولا يبحث عن تميز فارغ أو وجاهة زائفة. بعدين الزول الكلامه كله وثبات، تقول قعونجة دة برضه محسوب مع الناس بتاعين الخطابات المحكمة؟ والبقية: حرامية مال البترول، سماسرة الصفقات المشبوهة، المبيدات الفاسدة والتقاوي الفاسدة، سماسرة التعليم والصحة. سماسرة الأراضي، ديل برضو دايرين خطابات محكمة؟ مش ديل هم اعضاء حزب النظام ولا انا غلطان؟ بعدين انت سرقت بلد من اهلها وكمان تعاير الناس

السرقتها منهم بجهلهم! والجابرك ايه يا فاهم يا متعلم تضيع وقتك الغالى في حكم ناس جاهلين زينا!

تلفت حولي حذرا وقلت: التعليم ذاته عملو ليه ثورة!

ضحك شيخ النور وقال: انا القدامك المشيت بس الكتّاب دة، قبل كم يوم جوا أولاد هنا بعضهم بيقروا في الجامعة والحكمة واحد منهم بيقرأ طب! شايلين ليهم دواء واحد رسله لوالدته من السعودية، روشتة الدواء بالانجليزي مافي واحد فيهم قادر يقرأ ويفهم الدواء دة بيستعملوه كيف. واحد قال ليهم كدة ادوا الورقة دي شيخ النور يمكن يعرفها. ضحك البقية، لكن الولد اصر على احضارها لي، لدهشتهم قريتها ليهم وشرحت ليهم الدوا بيستعملوه كيف وشرحت للولد البيقرا طب: صايد افكت يعني شنو!

أهم ديل ناس ثورة التعليم بتاعتك. بعدين الداير يعمل ثورة تعليم ، بيشوف البلد دي يفتشها حتة حتة، محتاجة لي ايه، وين مشاريع التنمية، وين مشروع الجزيرة. محتاجين لتعليم في اي مجال: دي بلد زراعية محتاجة لزراعيين، لفنيين مهرة، نعمل ليهم معاهد ولا نفتح في كل حوش جامعة الاولاد يقروا في كلام خارم بارم، لا علم لا معمل، وفي النهاية اسم شهادات يعلقوها في البيوت ويطلعوا يسوقوا الركشات، لا في مشاريع تنمية يشتغلوا فيها ولا مصانع، المصنع الوحيد العملوه: مصنع سلاح! بدل مصانع الأسمدة والأدوية والملابس، عملوا مصنع سلاح! الناس تصنع للعمار وديل للقتل والخراب.

وفي النهاية ناس ثورة التعليم بتاعنك إتحولوا لثورة الركشة! كلهم سايقين ركشات. وبعد دة يجيك سمسار سياسة يقول ليك الخطاب كان محكم! نحن لينا ربع قرن بنسمع كلام بس. آذاننا اتعودت على الكذب، بقينا لو ما سمعنا الكذب المحكم ما بنتكيف! لو جة زول قال لينا الحقيقة بنقول دة مجنون!

5

أُعلنت حالة الطواريء في القرية، الزين الأحمر أعلن عصيان الحب المدني، أمهل اهل القرية ثلاثة ايام إما مساعدته لتعود زوجته الي بيته أو يجب الا يسأله احد إن اقدم علي إقتحام أي بيت من بيوت القرية بحثا عن إمرأة ما ...

قال له شيخ النور: ما تصبر شوية يا الزين.

رد الزين : (الايدو في الموية ما زي الايدو في النار، انت يا شيخ النور عندك زوجتين، تجرو من واحدة تدخلو في التانية، بالحمّام الكتير جلدك نشف، كلما نجيك في البيت نسأل عليك يقولو في الحمّام) واشار الي عضوه الذكري الذي ينتفض داخل جلباب الدمور وقال : أنا اقع بي دة وين ؟

كانت تلك نهاية منطقية لشهور من الحرمان بعد أن حصلت زوجته علي حكم من المحكمة بالطلاق بسبب سوء المعاملة والضرب الذي تعرضت له من زوجها وفشلت بعد ذلك كل محاولات الصلح التي حاول بها بعض اهل القرية، كانوا يجلسون في فناء المسيد تحت شجرة النيم العتيقة، بعد أداء صلاة الظهر.

قال شيخ الطيب: والمطلوب مننا شنو؟

قال الزين الأحمر : يا المرة ترجع يا شوفوا لي مرة غيرها؟

أعلن شيخ الطيب: المرة دي تاني ما بترجع ليك

قال الزين: خلاص شوفوا لي مرة، انشاءالله واحدة من بناتك الشينات ديل!

قال الطيب اتأدب يا ولد.

ضحك شيخ النور وقال: (المشكلة ما في بت حتقبل بيك، سمعتك انك بتدق النسوان ملت البلد، بعدين الناس قالوا انت مخك ما تمام، في الشتاء بتعقل وفي الصيف بتجن، الا تعرس ليك مرة للشتاء وتطلقها في الصيف وترجعها في الشتا!

تدخل سليمان الاعرج وقال : (لو سمعت كلامي اقع الخرطوم هناك مافي زول بيعرف جنك ولا دقك للنسوان ، يمكن تلقي ليك مرة!

نظر الزين اليه نظرة ارتعدت لها فرائصه، كان الزين الأحمر مشهورا بقوته الخارقة، الصيف الماضي هشم رأس ثور بضربة واحدة، وذات مرة تجمع حوله أربعون من رجال الشرطة للقبض عليه بعد ان أعتدي علي حارس حاول منعه من دخول المستشفي في وقت غير مخصص للزيارة. ضرب رجال الشرطة كلهم حتي لاذوا بالفرار.

كرر الزين تهديده قبل أن يغادر المسيد: (عندكم ثلاثة يوم بعداك ما في زول يسألني لو نطيت في أي بيت(!

قال شيخ الطيب بعد ذهاب الزين: وبعدين حنعمل شنو في المصيبة دي؟ ودة لو نوى ينط في بيت مافي شيء بيقدر يوقفه!

اشعل النور سيجارة القمشة وقال : (لا زم نلقي ليه حل الزول الصبر غلبو! وضحك قبل ان يقول : انا الحمدلله بت ما عندي عشان اقنعها تعرسو، ونسواني مسافرات لو نط في بيتنا ما حيلقى غيري! !

وقال سليمان الاعرج: (ما يلم الجماعة عشان يدخل معاهم الزواج الجماعي(.

وضحك شيخ النور وقال: والله كلنا دايرين الزواج الجماعي دة قالوا بعد العرس تلقي ليك قطعة واطة وشوية قريشات تتقسم الحاجات مع العروس وواحد قبّل واحد بحّر.

تنتحنح شيخ الطيب وتذكر زوجاته الثلاث ومشاكلهن التي لا تنتهي وقال: والله نحن دايرين طلاق جماعي لو في طريقة!

ضحك سليمان الاعرج وقال: ناس الحكومة ديل جابوا حكاية الزواج الجماعي دي، لكن الحقيقة هم عملوا طلاق جماعي، اي جريدة تفتحها تلقى نصها أحكام بالطلاق بسبب الغيبة! الراجل المعيشة تغلبه يخلي المرة والاولاد ويرقد صوف.

خرجوا ثلاثتهم من المسيد بعد خطوات وجدوا فارس المجنون يحمل جركان العرقي، قال له سليمان الاعرج : ماشي تسكر بالنهار؟ إنت ما عندك خبر المشروع الحضاري والا شنو؟

ضحك فارس وقال حضاري شنو، العرقي دة اشتريناه من ناس المشروع ذاتهم. العساكر بقوا يبيعوا العرقي.

قال أنا كنت جاييكم في المسيد، لكن الظاهر عندكم مشوار مهم!

قال شيخ النور: ماشين نرجّع للنور الأحمر زوجته لو بتقبل!

انضم اليهم فارس.

ثم توقفوا للسلام علي شيخ ابراهيم البصير الذي كان مشغولا بصناعة حبل من نبات الحلفاء .

تفضلوا يا اخوانا.

ماشين نرجع فاطمة للنور الأحمر قبل ما يقوم علي البلد، الزول الصبر غلبه.!

ترك ابراهيم البصير الحبل علي الغارب وتبعهم.

ثم انضم لهم سليمان التاجر.

اصبحوا ستة.

مرت المظاهرة الصغيرة أمام طاحونة ود العبيد فانضم لهم ثلاثة. الفضل وتاج الدين وحسين ود الفضل. ثم تقدمت المسيرة وقال فارس المجنون يا اخوانا ما نقيف نعمل لينا يافطات نكتب فيها : يسقط الخونة .. أعيدوا فاطمة لبيت زوجها ..تسقط أمريكا .. يا أمريكا لمي بهايمك!

قال سليمان التاجر : الجماعة كان بيقولوا لمي جدادك غيروها لي بهايمك ولا شنو؟

اوقف رجل شرطة شعبية المسيرة ليسأل عن سبب التجمهر وحين عرف السبب بطل عجبه الرسمي وانخرط في المسيرة، لاحظ فارس: الحكومة بقت تطلع في مظاهرات!

اقترح شيخ الطيب:

يا اخوانا ما دام دي مظاهرة سلمية وكمان الحكومة مشاركة فيها تلاتة مننا يدخلو يقدموا مذكرة!

توقفت المسيرة امام بيت حاج سعيد والد فاطمة زوجة الزين.

لم يكن حاج سعيد موجودا، دخل الطيب وشيخ النور وسليمان الاعرج للتحدث اليها: قالت فاطمة: لو انطبقت السماء علي الارض فلن اعود اليه.

قال شيخ الطيب: يا بنتي البلد كلها في خطر والزول دة وعد قدام الناس دي كلها يعاملك احسن معاملة.

قالت فاطمة: في كل مرة كان يقول نفس الكلام.

انهت فاطمة المقابلة بقولها : من يريد ان يتكلم عليه ان ينتظر أبي.

خرج الوفد الي الخارج وفي انتظار والد فاطمة توالي توافد اهل القرية وتحول المكان الي سوق صغير تجول فيه بعض الغجر يبيعون الاواني وازدهرت تجارة الحمير ووقف رجل ينتمي لاحدي الجماعات السلفية يذّكر الناس بيوم الحساب،معلنا ان سبب البلاء والجوع هو ابتعاد الناس عن الطريق القويم.

قال فارس: الزول دة ما عنده خبر ان قيامتنا قامت وهسع نحن في جهنم.

ضحك شيخ النور وقال: شيخنا دة يعاين لي الفيل ويطعن في ضلو. نحن من قمنا في دينا، صلاتنا وصيامنا وصلة ارحامنا، صغيرنا يحترم كبيرنا، والراجل بكلمته وكرم اخلاقه. حكومة جات بالانقلاب ،سرقوا البلد واكلوا حقوق الناس ومرقوهم من الملة، وقلبو كل شيء في الدنيا فوق تحت ، عندك

قرش حتى لو سارقو انت فوق، راسمالك اخلاق وادب انت زول ساكت، وبعد دة يجيك واحد يقول ليك دة كلو منكم انتم !

حين وصل والد فاطمة بالرفض النهائي تحركت المسيرة بناء علي توجيهات شيخ النور الي وسط القرية للبحث عن زوجة للزين. جابت المسيرة طرقات القرية وواصل الباعة المتجولون بيع اشياءهم وواصل رجل الدين التذكير بالاخرة من داخل المسيرة مستخدما مكبرا صغيرا للصوت يعمل بحجارة البطارية، وحين تحدث عن وجوب عدم الانغماس في مباهج الدنيا وتذكر الآخرة، قال له سليمان الاعرج الذي كان يسير بجانبه: وينها المباهج يا شيخنا، بعدين الاخرة ذاتها ننساها كيفن ونحن عايشين في جهنم ذاتها!

ضحك الفضل حين فتح الباب ووجد المسيرة تتوقف امام بيته طالبين تزويج ابنته السرة من الزين الأحمر، علي سنة الله ورسوله واجماع العلماء. وقال بصوت عال غطى علي مكبر الصوت الذي يستخدمه رجل الدين: معليش يا اخوانا ما حنقدر نعزم عليكم شاي ولا قهوة لأن سكر بطاقة التموين انتهي ولو جبنا بلح دايرين ليكم اربعة خمسة جوالات. دخل الي البيت ليشاور ابنته في زواجها من الزين الأحمر الذي اصبح مطلبا وطنيا، لم يستغرق رفضها سوي الوقت الذي استغرقه والدها ليبلغها بالطلب. واصلت المسيرة طريقها حتي أعلن شيخ النور عن رفض جميع الفتيات اللائي لم يسبق لهن الزواج، الزواج من الزين، وانتهي الي القول سنتجه الان الي شارع الارامل، ربما يكون حظه أفضل هناك!

قال الزين وهو يجلس في فناء بيته الفارغ وهو يستمع الي ضوضاء المسيرة التي تتلوي مثل ثعبان في ازقة القرية وهي تتجه الي الطرف الاخر منها:

بكرة أكيد حيكون في إمرأة في البيت دة !

تقدمت المسيرة في زقاق طويل يعبر القرية الي غربها وقد سدّت الشمس الغاربة مدخله البعيد، بحيث بدا مشهد المظاهرة وكأنها تتجه نحو الشمس، فيما تعالت أصوات أناشيد أطفال المدرسة الذين تبعوا المظاهرة حتي غطت علي صوت الداعية المنهك الذي كان يذّكر الناس بيوم الحساب

6

فجاة رأينا من مخائبنا شجرا يعبر فوق نهر السراب! كنت طوال أيام أتمنى أن يقع بصري على أشجار في المدى الغارق في سراب ضوء النجوم. قلت للسائر بجواري دون حتى أن اتبين هويته: الاشجار لا تكذب!، قال السائر بجانبي دون أن يرفع وجهه: الأشجار لا تكذب لأنها لا تتكلم.

لكنني كنت مصرا على إنحيازي للأشجار: الأشجار لا تكذب لكن هذا الجبل يخدعنا، كلما إقتربنا منه يغرينا أكثر بأن يسير بضع خطوات نحونا، لكن ما أن تشرق الشمس ونخلد نحن إلى مخابئنا حتى يواصل هو رحلته بعيدا، كأنه يسير عكسنا، يتوقف في الظلام ويسير في النهار!

كنت أجلس مع شيخ النور خلف المسيد ، يبدو انه سئم الجلوس وحده في فناء المسيد ، فجلس في الخارج لحين ظهور شخص ما، في الخارج كان بإمكانه مشاهدة العابرين في قلب القرية، والأطفال الذين يلعبون شليل في ضوء القمر، لكن المكان كان هادئا وخاليا من العابرين، بدأ موسم زراعة الشتاء ولا زال البعض في الحواشات، او جاءوا مرهقين إلى بيوتهم.

شعرت كأن الصمت يرتبط فقط بهذه الليلة، شعرت بأرواح الموتى تتصاعد مثل بخار ضوئي في مرجل الصمت. كأن الحياة هذه الليلة مقتصرة فقط على الموتى. حاولت أن أبدد شيئا من الصمت الذي شعرت به يتسرب في

صورة خوف مبهم إلى دواخلي. قال شيخ النور: شغلك الجديد كيف؟ وليه رجعت بسرعة كدة؟

شعرت كأن سؤاله يفضح شيئا ما أحاول أن أخفيه دائما، كل شيء أنشغل به في حياتي، السفر والعمل، البحث عن كتاب في أسواق الكتب المستعملة القديمة المفروشة على الأرض، لعب الورق، الذهاب إلى نهر النيل في ساعات الأصائل. كل شيء أقوم به لإخفاء شيء، لمداراته بعيدا عن الضوء، كأن مجرد انكشاف ولو جزء يسير منه يعني ضياع هذا الشئ إلى الأبد.

قلت بحذر: هذه عطلة الكريسماس ورأس السنة. ثم أمسكت بمجداف الكلام وحاولت أن أجدف مبتعدا، قلت:

شفت إحتفال عيد الاستقلال؟

قال شيخ النور: وينه الاستقلال! ووينه العيد! ووينه البلد ذاته؟ البلد استقلت من الانجليز واستعمروها طلاّب السلطة. هسع أها دة بيقول امريكا وروسيا دنا عذابها. ومافي زول اتعذب غيرنا. دفعنا تكلفة الانقلاب كامل، دفعنا تمن الرصاص الكتلونا بيه. دفعنا تكاليف السجون السجننونا فيها . ومرتبات الناس الجوعتنا وحرمتنا من الدواء وحرمت اولادنا من التعليم. الانجليزي كان عدو، كان مستعمر، لكن راعى مصالح الناس. المشكلة في البيقول ليك انا وطني ويعرضك مع واطاتك للبيع، وبالتقسيط المريح كمان.!

قلت بعد أن صمت شيخ النور، كأنه شعر أن لا فائدة ترجى حتى من الكلام: الحكومة عملت تكريم للسيدين و..!

ضحك شيخ النور شعرت كأنه لا يرغب فقط في تلك اللحظة في سماع صوتي، بدت لي ضحكته وكأنها تتناسل في الهواء في دوائر لا نهائية، هل هذا معقول، قال أخيرا بعد أن مسح دموع الضحك بكم جلبابه، زول يقلبني ويجي يكرّمني! دي يفهموها كيف؟ زول يقلع منك بلد كاملة ويديك شهادة! وكمان تمسكها! ويمكن يمشي يعلقها في الديوان ويوريها الضيوف! يقول ليهم شوفوا الزول القلع مني الحكم دة كريم كيف، جابني من دون الناس وكرّمني! زول قسّم البلد، حكمها غصب واتسبب فى موت ملايين الناس في حروب ما عندها معنى. بعد دة لو أنا زول بحترم نفسي وتاريخي، انا كنت حاكم شرعي الناس انتخبتني، كيف اقبل تكريم من زول خرق القانون والدستور؟ زول الدنيا كلها شايفاه مجرم حرب! وباريت كان كتل ليه عدو، دة كتل شعبه! الشعب الحلف على كتاب الله يراعي مصالحه، اذا انا عندي تاريخ مشرف فعلا ما بقبل كلام زي دة، وكت اقبل حتى لو عندي تاريخ معناها الزول الكرمني دة افضل من تاريخي دة كله! وكت يكرمني مجرم حرب معناها أنا أبقى شنو يعني؟ بنط البيوت بالليل؟

قلت وأنا أحدق بنصف إبتسامة في وجه القمرالذي كانت تعبر فوقه في تلك اللحظة سحابة تبدو مثل اخطبوط ممزق الأطراف: الزول دة خلاص لغى التمكين، رفد الجماعة الكبار، الجابوه للحكم! وجاب ناس الجيش. تاني زول ما عنده مؤهل غير الذقن زي زمان ما بيلقى شغل!

ضحك شيخ النور وقال: ومين بيصدق كلامه تاني! زول جة بكضبة، والكضب غيرو اسمه سموه أخبار، زي ما المجاعة بقت فجوة والكوليرا بقت اسهال مائي! السرقة ورفد الكفاءات وتعيين الحرامية بقى اسمها تمكين، وقتل الناس الابرياء بقى جهاد.وناس البلد بقو خونة وطابور، زول خرّب الخدمة المدنية الورثناها من الانجليز، كل شيء كان ماشي زي الساعة. بلد كاملة كان حاكمها مفتش واحد، هسع والي ومجلس وزراء وكل وزير بوزارته وموظفينه، ومجلس شعب ومحافظين وضباط اداريين ومحليات ولجان شعبية ومجالس مدن، ولجان فرعية ومنبثقة. وتعال شوف كنا وين وكت البلد دي كلها كان حاكمها محافظ واحد وبين زمن الجيش القاعد فوق راسنا دة، ندفع مرتباتهم وكل واحد فيهم داير يورينا انه احسن مننا وانّ كتّر خيره ان هو قبل يتنازل ويجي يحكم ناس رمم حاسدين زينا! الناس المؤهلين البلد دفعت فيهم دم قلبها شردوهم، المات كمد والهاجر خلى البلد، وجابوا ناس الولاء على حساب الكفاءة. والنتيجة شنو؟ دمار في كل شيء. حتتوقع ايه من زول بليد غير مؤهل، جابوه المنصب عشان بس عنده دقن طويلة. حتى الدين نفسه، بيحرم انك تجيب زول غير كفء لوظيفة عامة بتمس حياة الناس ومستقبل اولادها. والنتيجة اهي لا مستقبل لا بلد ذاته! الكيزان عارفنها ما دوامة، عشان كدة ما ضيعوا وكت في دين وكرم اخلاق. سرقوا البلد خلوها جنازة وبعد داك قالوا لغينا التمكين! بعد ما رقدت وعدمت نفاخ النار! دارين يعملوا فوقنا زي عمايل عمك الخزين، إتسلبط في عجل شارد قال حقه، وكت ظهر سيد العجل بعد فترة، الخزين حلف اسم الله قال العجل حقه، الزول مسكين ما

بتاع مشاكل استعوض الله وخلاه ليه، وكت العجل مرض وقرّب يموت، رسل لي صاحبه قال ليه خلاص تعال سوقه! كويس برضه ان ما عمل زي زمان وكت تمرض عنده بهيمة ويعرفها دايرة تموت، كان يضبحها ويفرّق على كل بيت كوم لحم ويجي يستلم القروش !

قلت بعد فترة صمت، كنت لا أزال احدق فيها في القمر، رغم أن كلامي كان يعطي إنطباع أنني كنت أفكر فيما قاله شيخ النور: تذكرت بقصة ناس حاسدين دي راجل كبير مرة زارنا في المدرسة جايي من الخرطوم، كان جايي يبحث عن شهادة ميلاد حفيده، قلنا ليه الناس هناك كيف واحوالها كيف. قال لينا الناس هناك نصها حرامية والنص التاني حاسدنهم!

ضحك شيخ النور وقال: شكيناهم على الله، كيف ما نبقى حاسدين؟! شالو مننا كل شيء. باعو بلدنا قدام عينا، دمروا حتى أخلاقنا . زمن الاستعمار كان بجي عامل ناموس يحوم في الحلاّل كلها، يرش مبيد البعوض ويفتش لو لقى زول مخزّن موية ممكن توّلد باعوض، يجففها ويغرّم صاحبها. هسع أساسا مافي دولة عشان تفكر في مصلحة مواطن. الملاريا هلكت الناس، وعلاج مافي. ولو في علاج مكلّف والناس ما عندها إمكانية. وأكيد مسئولين اليومين ديل بيقولو: وينه المواطن ذاته النحارب ليه باعوض! ناس استبدت لغاية بقت في الدنيا ما شايفة زول غيرها. تقول بيعلموهم ان الزول الما معانا دة، ما زول! العدو المستعمر، كان على الأقل بيشوفنا واحد، ما بيفرزنا بشعر اللحية! كان مهتم بصحة المواطن وحياته، الوطني المستعمر بيهتم بموت المواطن، القروش الكانت بتمشي زمان عشان تكافح الباعوض وتعالج

الملاريا وتعلّم الناس وتطور زراعة القطن، بتمشي هسع لشراء السلاح، يشتروا بيها الانتينوف، يملوها براميل بارود، عشان لو اتكلمنا وقلنا البغلة في الابريق، ينزلوها فوق رؤوسنا! رؤوس الكفرة والعملاء والمارقين، اللي هم نحن !

سرحت بنظري في المدى، كنا نجلس فوق حصير السعف في الساحة الكبيرة في القرية، ونتكئ على جدار المسيد، كانت رياح الشتاء الباردة بدأت تهب محملة بالغبار. لكن الجو كان لا يزال أقرب إلى الحر خصوصا في ساعات النهار. تبدو أشباح بوابات البيوت المطلة على الساحة مثل قطيع جمال ضخمة تسابق القمر .

قلت: النور الأحمر وين ما شفته من وصلت ؟

قال شيخ النور: حاج سعيد أخذه إلى جماعة من اهله ساكنين جنب سوق السبت، عرسوا ليه بنتهم، وسمعت قالوا زارع السنة دي مع نسايبه.

غرق شيخ النور في الصمت ، لا أسمع منه سوى صوت حبات المسبحة الرتيبة التي يسحبها بصباعه، بدا لي وكأنه هو من يقود الصمت الذي بدأ يغزو كل شيء. ساد الصمت في القرية. اختفى كل شيء يدل على وجود حياة في العالم. تلاشت حتى أصوات الكلاب الضالة وإختفى نهيق الحمير، شعرت ببرد جاف يتسلل إلى قاع عظامي رغم أنني كنت ألف جسدي بشال ضخم من الصوف، لم إعرف إن كان بردا أو شعورا خارقا بالخوف، قلت لشيخ النور: يلا ندخل المسيد، الجو أصبح باردا! لكنه بدلا من أن يرد، إرتفع صوت غطيطه، لوهلة بدا لي صوت شخيره، مثل هدير صوت طائرة

تخترق جدران الصمت، جدران الشتاء. شعرت كأن الصوت يوقظني من نوم عميق، نوم يغرق العالم كله، الناس والحيوانات، الأشجار والرمال. حتى القمر، كأن الهدير الذي سمعته يدوّي في السماء لم يكن سوى شخير القمر النائم في صحراء فضائه، مع إرتفاع ضوء القمر بدأ المد يرتفع، كثبان الرمال حول القرية بدأت تتمدد وتفيض في دوامات رمال ، كانت دوائرها تزحف بهدوء داخل طرقات القرية. شعرت بنعاس لا يقاوم، حاولت فقط إبعاد نفسي عن الموجة التي يبحر فيها شيخ النور، فإنفتح المشهد في ذاكرتي على بحر الرمال.

كنا موزعين في مخائبنا داخل الرمال، حين رأيت الشجر يسير من أمامنا في نهر السراب من على البعد .

قلت بصوت مرتفع طغى عليه الرعب: أني أرى شجرا يسير!

إرتفعت عدة وجوه تنظر إلى الاتجاه الذي أشرت إليه. نادى الحكيم المسن الذي يرافقنا: أدفنوا أطفالكم وأنفسكم جيدا في الرمال، نظر إلى السماء الخالية ثم قال: إنها الانتينوف!

لم يكد يكمل جملته حتى سمعنا صوت هدير غريب. كأنه شخير العالم الغارق في سبات الضحى، يمزّق صمت االحياة في الصحراء.

هبط الجميع إلى بعض الوديان الصغيرة محاولين اخفاء اجسادهم بين الرمال والاعشاب، كنت أنا الوحيد الذي بقي واقفا دون أية إحساس بالخطر الداهم القادم من السماء. منذ الغارة الاولى التي فقدت فيها زينب ومحمد، لم يعد لدي ما أخسره. أسير مع المجموعة في حالة عدم توازن، أسير معهم لأنني

لا أعرف أتجاها آخر أسير فيه، لا أعرف حتى لماذا يجب أن أرافقهم في الرحلة إلى الجبل، أتوقف حين يتوقف الناس واسير حين يسيرون، أمد يدي آليا للطعام حين يجلس الجميع للأكل، أكاد لا أشعر بطعم شيء في فمي. كيف سأصل إلى الجبل بدون زينب ومحمد؟ وماذا سأفعل هناك بدونهم؟ ولماذا أخاف بعد أن فقدتهم؟ مد أحدهم يده وسحبني إلى الأرض صارخا في وجهي لأختبئ بجانبه. مجرد أن سحبني إلى داخل الحفرة حتى تعالت اصوات القنابل من حولنا.

7

ليلة الجمعة إستيقظنا على صوت المؤذن، كان صوته غريبا وساحرا كأنه قادم من عالم آخر، بدأنا ننظر من حولنا في الضوء الخافت، كأننا نعيد التعرف إلى العالم الجديد الذي كان يولد أمام أعيننا في ضوء القمر .

قال أحدنا: هل لاحظتم شيئا؟

قلت نعم، هذا صوت عبد الجبّار المؤذن، ثم قلت مترددا: لكنه مات منذ خمس سنوات!

رد الصوت: لا أقصد هذا، انظروا إلى تلك الغابة!

لم ننظر إلى الغابة، بل إلى المكان الذي أشار إليه، لم نر شيئا في البداية، لكننا بقينا ننظر على كل حال في نفس المكان، فبدأت تتضح بعد قليل معالم أشجار كثيفة في نفس المكان الذي عبرنا فوقه بالأمس ولم يكن سوى صحراء جرداء لا ينبت فيها شيء. نذكر ذلك جيدا لأننا كنا جوعى، بحثنا عن شجرة طندب نجد فيها بعض الثمار فلم نجد شيئا، حتى انني علقت قائلا: يا له من قفر عجيب لا ينبت فيه ولا حتى الطندب!

كنت أنظر إلى أعلى بحثا عن النجم المذنب، الذي حين يتلاقى طرفاه، سيبدأ الوقت الذي سأهتف فيه بأمنيتي لاعادة الزمن إلى الوراء، وأحدد اللحظة التي أريد أن أبدأ منها، قبل أن يختفي النجم في الغلالة الحمراء التي تقف من خلفه.

قمت بتحريك حجري إلى الأمام وقلت لشيخ النور: شايف ناس الحكومة عملوا تغييرات ، شالوا ناس وجابوا ناس!

دفع شيخ النور حجره الأحمر وقال بفتور: الشغل زي السيجة حقتنا دي، المشكلة ما في الحجارة، المشكلة في الراس واليد البتحرك الحجارة، الحية وكت تبدل جلدها، بتبقى حية جديدة لكن بتظل هي الحية نفسها.!

قلت: القروش راحت، زمان لقوا قروش البترول دي ووزعوها على ناسهم، كانت بتكفي الجميع، هسع الحالة وقفت والشارع منتظر ليه شرارة عشان يولع!

قال شيخ النور: الراس الكبير الظاهر إقتنع ان استمراره في الحكم صعب، داير يتنازل لكن خايف! داير ليه ناس ثقة يستلموا الحكم وما يسلموه للخواجات يحاكموه!

قلت: الضمان شنو طيب الزول الثقة دة هو ذاته يستمر في الحكم، مش يمكن يحصل اي شيء ويبقى زولنا مكشوف في اي وضع جديد ممكن يسلموه!

قال شيخ النور: لأ هو ما حيسلم للخليفة الا لو ضمن ليه وضع، يمكن يمشي لي حتة يضمن فيها مافي زول يسلمه، الزول دة ارتكب جرائم كبيرة ومحتاج يمشي يجاور في الحرم عشان يمرق الذنوب دي كلها. ما سمعت قصة العربي الشاف المهدي يبكي في الصلاة قام سأل رفيقه قال ليه الزول دة مالو يبكي!

رفيقه قال ليه: الزول دة لملم العربان والخلايق من هون وهون وساطها وجاطها وغير ربك تب ما في زول يعدلها تاني! لو المهدي كان بيبكي في الصلاة مفروض دة يبكي ليل ونهار وبعد دة الدم السفكه حيطارده ليوم القيامة!

قلت: ما اظن يخليها بالساهل الا يلقى ضمانات قوية، إن قضية المحكمة انتهت. وحتى لو القضية إنتهت، السلطة مرض. انا أحيانا أشعر إنه سعيد بموضوع المحكمة عشان يلقى حجة يقعد بيها في الحكم!

حرك شيخ النور حجره بعد فترة تفكير وقال: الزول دة فهم من هبة الشارع الأخيرة ان الزمن بقى ما في صالحه، والشارع دة هو ما عنده ليه حاجة تاني، الناس جاعت وتعبت والقروش مرقت من البلد، مرقوها جماعته الحرامية. ولو الشارع دة تاني قام مافي شيء بيقدر يوقفه. الناس اصلا ميتة ميتة، والرصاص ما بيكتل زول ميت.!

قلت: هم بيقصدوا ينشروا اخبار فرقهم الخاصة واستعمال رصاص قاتل ينفجر داخل الجسم واغتصاب البنات، عشان الناس تخاف ما تمرق الشارع.

قال شيخ النور: الموت واحد، وهسع الموت بقى في كل مكان، الناس جعانة وتعبانة قاعد يضربهم بالطيارات، العلاج غالي معظم اهل البلد فقراء، الناس رجعت تتعالج بالأعشاب وتمشي للشيوخ، الناس بسوء التغذية كلها عيانة. يبقى احسن لي امرق الشارع على الاقل يمكن اولادي يلقوا نظام محترم يحترم بني آدم ويديه قيمته. بدلا من نظام الناس كلها عنده ما عندها قيمة.!

إقترح أحدنا أن نذهب إلى الغابة!

قال: سنجد هناك شيئا نتغذى به، صمت قليلا ثم قال ضاحكا، وربما نجد سلاحا نحارب به او على الأقل نحمي أنفسنا لحين وصولنا لمكان آمن!

توقفنا وقد ألجمتنا الدهشة، بدا لنا كأن ذلك الصوت الصادر عن أحد رفاقنا، كان يصدر في الواقع من كل واحد منا! حتى أنني تحسست حنجرتي لأتأكد أنني لم أكن صاحب الصوت الذي كان يتكلم في تلك اللحظة.

وجدنا أنفسنا نتوغل داخل الغابة!

مجرد أن وطئت أقدامنا ارض الغابة حتى سمعنا أصوات دقات طبول مكتومة! توقفنا، لقد سمعنا نفس دقات الطبول هذه في عوالم اخرى! عوالم أخرى يستحيل حتى وصفها، كانت أبواب الاشجار الكثيفة تنفتح من أمامنا وتنغلق من خلفنا.

كنت أحدق في فراغ ضوء القمر كأنني أتوقع ظهور شيء ما، شيء يتكون من خيوط ضوء القمر، وسيظهر فجاة، مكتملا مثل بدر في ليلة تمامه، قلت وأنا لازلت احدق في المجهول: الظاهر عاوزين فعلا يغيروا جلدهم، والحية تبقى حية جديدة، واحد من ناس الحكومة قال الحكومة صفّرت العدّاد وبدأت جديدة من نقطة الصفر!

صمت شيخ النور حتى ينهي جولة السيجة، وضع الحجر الأخير وقال: سيبدأ عهد جديد من الكذب والخداع، حتى حين يضرب أحدهم الأمثال ما عندهم غير أمثال اللف والدوران. تصفير العداد بتاع العربات بيعملو بعض

الناس عشان يوهموا المشتري ان العربية جديدة. بعدين هم بدل يرجعوا الصفر ويجونا سعرانين من جديد، اخير يقعدوا كدة على الاقل بعضهم شبعوا شوية بالنهب، لغاية ما يتحلوا من رقبتنا!
قلت: ذاكرة بلدنا بيتعاملوا معاها زي السبورة، يكتبوا فيها وبعدين يمسحوها ويكتبوا من جديد!

واصل شيخ النور حديثه بعد ان وضع السعوط في فمه ونفض الباقي من يديه : كلما يكتلوا الناس او يجوعوهم يحاولوا يوهموا الناس ان الفترة الصعبة انتهت بناسها، يحاول يخلو الناس تنسى عمايلهم السودة ، تغيير الأسامي والوجوه دة شغلهم، حتى حزبهم، مافي اسم في الدنيا ما جربوه. عشان يغسلوا سيرته من جرائم ومصائب الفترة الفاتت، لكن الناس وعت، الناس اللعبوا بيها كتير دي صحت، وفهمت اللف والدوران. الناس كان عندها اعتقاد قديم ان الحكومة دى جهة صالحة، ما بتضر الناس، حتى لو استخدت القوة احيانا دة عشان تحمى الناس، لكن الناس كلها فهمت هسع ان دي ما حكومة. دي عصابة سرقت البلد بالليل. ودايرين ينهبوا ويحكموا الناس، ومستعدين يعملوا اي شيء عشان يقعدوا في الكرسي لأن يوم يفارقوا الكرسي حيكون يوم صعب عليهم بالجرائم العملوها.

إنتبهت على صوت شخير، كان شيخ النور لا يزال يحمل حجر السيجة في يده، وقد إتكأ على جدار المسيد وإستغرق في النوم، أرحت ظهرى على

حصير السعف، فرأيت القمر يطل وحيدا من خلف أشجار النخيل، رأيت في وجهه ما يشبه مركبا شراعيا يبحر إلى الأبد. وسمعت ما يشبه دقات طبول بعيدة، كانت كأنها ترافق القمر منذ أزمنة خسوف غابرة.

8

كان الوقت آخر أيام موسم الدميرة، إنحسر خور أرقو بعد أن أغرق الجروف لعدة أسابيع، نهر النيل في موسم الفيضان كأنه يأتي خصيصا لكبح جماح الرمال الزاحفة نحو القرية. حين يكون الفيضان كبيرا يحطم النهر الهائج أيضا كل شيء في طريقه ويدمر البيوت، كأنه يجب أن يسبب بعض الخراب حتى يوقف زحف الموت، زحف الصحراء. بعد إنحسار النهر تتراجع الرمال، تكون هادئة، كأنها تعرف أنها إن زحفت نحو القرية ستغرقها المياه، تبق هادئة لبضع اشهر كأنما لتتأكد أن النهر قد هدأ موسم جنونه، ثم تبدأ تدريجيا الزحف نحو القرية.

حين ينحسر النهر وتهب الرياح الباردة من الشمال، تبدأ أصوات الحياة تخفت في العالم، إختفى الشباب من القرية معظمهم نزحوا إلى مناطق تعدين الذهب، ينشغل الباقون بزراعة محاصيل موسم الشتاء. تحت شجرة النيم العتيقة في المسيد جلست مع سليمان الأعرج والعم سعيد وحاج النور نستمع إلى فارس يحكي آخر قصص مشاكله مع عمه :

عمي الزين كان ماشي الليلة الصباح البنك يقدم طلب سلفية، وما عنده زول يعمل ليه ضمان في البنك غيري والحقيقة انا لي فترة زايغ منه، لأن آخر مرة عملت ليه ضمان، وقت مواعيد سداد القروش جات، سافر مرقها في الخرطوم، جوا ناس البنك قبضوني قعدت في الحراسة لغاية ما رجع على

راحته بعد ما لف على الانادي الفي العاصمة كلها ، اتصل باصحابه المغتربين قال ليهم بسلم أهلكم نهاية الموسم قمح رسلوا لي قروش، بعد استلم قروش المغتربين رجع دفع قروش البنك.

اها انا لقيت الخبر في الحلة ان الزول دة ماشي البنك عشان يستلف تمويل الموسم، الصباح صحيت على خبط شديد في الباب، لو تأخرت شوية كان كسر الباب، فتحت الباب لقيت عمي الزين في وشي، قال لي البس هدومك وامرق معاي دايرك ترافقني في مشوار مهم، حاول يخدعني قال لي: يمكن الجماعة الماشين ليهم يقلو أدبهم نحتاج لي عضلاتك القاعدة ساكت دي! وقت عرفت الموضوع بايظ قبل ما هو يتم كلامه خطفت الابريق وجريت على المرحاض، قعدت في المرحاض بهدومي، في فتحة في الباب قعدت اراقبه منها، بعد شوية مرقت وتاني خطفت الابريق ورجعت، كورك فوقي: مالك يا زول؟ قلت ليه والله اسهال شديد ما عارف الحاصل شنو. قبل ما اكمل كلامي تاني خطفت الابريق وجريت ، وانا قاعد في المرحاض قال لي طيب ما احسن تمشي معانا تقابل الدكتور، قلت ليه ما بقدر بالحالة دي لكن رسلت سليمان الاعرج للمساعد الطبي يجيب لي دوا. اها وكت عرف حجتي ميتة، زهج، خلاني جوة المرحاض وروّح! بعد ما اتأكدت انه مشى مرقت وقعدت ماسك الابريق في يدي مسافة قلت يمكن ما يلقى زول تاني يرجع لي..

سأله سليمان: والزين هسع وين؟

قال فارس : مشى البنك وكت يكون عنده حاجة عاوز يعملها، لازم يعملها بسرعة والا ممكن يجن لو ما عملها في نفس اليوم !

قال سليمان: انت زول صعب يعني هسع لو مشيت معاه المشكلة شنو؟ بعدين انا عندي شك في حكاية تضمن الناس دي، دي دعاية عاملها لنفسك عشان تعمل أنك مهم وناس الحكومة والبنوك كلهم يعرفوك، اذا اصلا بتقدر تاخد للناس سلفيات من البنك طيب ما تمشي تاخد لنفسك، بدل حايم مطلوق لا شغل لا مشغلة!

قال فارس: يا اعرج الرماد ارعى بقيدك انا زول سياسي ومعروف!

ضحك الاعرج وقال: سياستك شنو، عشان مرة دخلت اللجنة الشعبية بعد ما كبار البلد رفضوا يخشوها وقالو ما بنبقى لعبة في يد شوية اولاد عاملين فيها كيزان سياد البلد! اها ادوك شوية سكر وقريشات خشيت معاهم وكمان حايم معاهم من بيت لي بيت تعمل ليهم دعاية وتقول للناس ديل ناس دين، بيخافو الله وما بيمدو يدهم على مال حرام، ونحن عارفنهم ما بيخلو لا حلال لا حرام، والحكمة انت في حوامتك معاهم دي سكران! والغريبة الكيزان ديل كيف ما شموا ريحة العرقي الطالعة منك؟!

قال العم سعيد: لو دايرين يشموها كان شموها لكن هم وكت يكون محتاجين ليك لو جيت مستحمي بالعرقي يقولوا ليك يا شيخنا ويقدموك في الصلاة! لو إنت ما زولم، لو شارب شاي باللبن يبقوا ليك في رقبتك يقولوا ليك الشئ مريسة ويجلدوك في السوق!

أعلن فارس وكأن الأمر لا يعنيه كثيرا: ما تنسى انا مشيت جاهدت وجيت!
ضحك الاعرج بصوت عال، ولم يقل شيئا.
علق حاج النور: جهاد شنو، قالو كوستي ما وصلتها، طلقة واحدة في الهواء ورقدت صوف، جيت جاري جري الوحوش، اليشوف صحتك دي يقول مدفع ما يعمل ليك شئ! !
قال الاعرج: كوستي شنو، الخرطوم دي ما وصلها! ودوه معسكر دفاع شعبي في خلا ام درمان، أخد تلاتة يوم ، اليوم الرابع خلاهم واقفين في صلاة الصبح ومرقها في سوق ليبيا!

ضحك فارس وقال: المدرب خلاني كرهت الجيش، يوم لقاني سافي قال الا يبلعني السفة، قلت ليه يا زول انت الله ما ليك والا ايه؟ كل يوم شابكنا العسكرية تصرف، ولازم تطيع الأوامر بعدين تفكر! الكلام دة كله ما راكب مع بعضه، قلت ليه اشرح لينا الكلام دة كيف. ضرب لينا مثل، قال في عسكري فوق عمارة في الطابق العشرين ادوه تعليمات قالوا ليه يقفز للارض، اها وكت وقع، ادوه تعليمات قالوا ليه: كما كوت!

قال الاعرج كما كوت يعني شنو؟
اوضح فارس: كما كنت، معناها ارجع زي ما كنت في مكانك!
اها التعلمجي قال العسكري قالوا ليه كما كوت، ما نفذ التعليمات، وقع مات!!
قلت ليه لكن الزول يرجع كماكوت كيف وهو وقع!

قال لي اسمع يا مستجد نص ملكي ونص زول: وكت قالوا ليه كماكوت، كان لسة ما وصل الأرض، كان قصاد الطابق العاشر، والعسكرية تصرف!

ضحك عم سعيد وقال : ياها عقلية العساكر دي الودتنا التوج !

وقال النور: وكمان اتلموا عليهم الكيزان، نفس العقلية ونفس الفكرة. دايرين من الناس طاعة بس، يمكن العسكري معذور، ياها تربيته قايمة على ان الملكية ديل ناس ساكت وان الزول ما يبقى زول لو ما عسكري. الكيزان كمان يقولو ليك دة ما كلامنا، دة كلام الله، لو عندك راي فيه يكون عندك راي في الله! في دجل اكتر من دة! زول حرامى ودايرني اسمع كلامه لأن كلامه دة كلام الله!

علّق سليمان الاعرج: والله كلامك على العساكرصحي، ما شفتو نميري وكت جابوه في التلفزيون قال يا اخوانا العسكري اخير من الملكي، المذيع استغرب وقال ليه كيف؟ قال ليه الزول العنده قرش زي العنده قرشين؟ المذيع قال ليه لأ، قال ليه طيب! المذيع ما فهم شيء، قال ليه طيب شنو؟ قام شرح ليه: العسكري دة واحد هو مواطن ملكي اصلا وبعدين بقى عسكري يعني لامي الاتنين، والملكي دة عنده واحد بس لأنه زول ملكي ساكت!

قال النور: والله انا سمعت الكلام دة، لكن اظن الزول كان في آخر ايامه بقى يهضرب، هو فعلا عنده شوية دروشة كان خصوصا وكت الناس يصفقوا ويهتفوا ليه كان مرات يطربق، يلغي حاجات ويرجع حاجات لغاها، لكن كلامه بتاع قرش وقرشين دة الله أعلم كان عيان ولا شئ!

وقال عم سعيد: اها فارس انا ذاتي نويت السنة دي اشوف لي مزارع نشيط وأرجع للزراعة بعد خليتها كم سنة، ولدي الطاهر قاعد في السعودية ليه اكتر من سنة بدون شغل، بقى هو ذاته داير مساعدة. نسوي شنو قلنا نرجع تاني نأكل مما نزرع، في السن دي ما بنقدر نأكل مما نحفر، ما بنقدرنمشي الخلا نفتش الدهب! اها دايرك تضمني في البنك ما دام انت كنت لامي الجماعة ديل في اللجنة الشعبية وكمان مشيت معاهم الجهاد

ضحك سليمان الاعرج وقال: دة عشان ما يضمن عمه، مدعي المرض، لو انت جيتو حيقولو ليك الزول مات!

ضحك سعيد وقال: لأ الزين زول صعب، داير الضمانة وما داير يدفع حاجة، انا باتفق معاك بديك حقك في السلفية، ولو الموسم نجح كمان بديك نسبة في الشمار!

قال فارس يا زول لو كدة ابشر تب، جهز مزارعينك وتقاويك، حرّم لو البنك ابى يديك نعلن عليهم الجهاد!

قال شيخ النور: انت هسة بدل شغل الاستهبال بتاعك دة لو قريت ما كان يمكن اتوظفت في حكومة ولا بنك وساعدت اهلك، سببك شنو ترفض القراية؟ زمنك الناس قروا مجان لا قرش لا تعريفة. هسع عيال الناس كلها في الحواشات أو سارحة في الخلا تفتش الدهب لأن ما عندهم قروش للمدرسة، وما عندك قروش يطردوك من المدرسة زي الكلب.

قال اسماعيل الاعرج: قبل ايام لقيت جريدة جابها واحد جة بالبص، قريت خبر عجيب، قالو ولد طردوه عدة مرات من المدرسة عشان ما دفع الرسوم،

اها والجنا حساس كلما يطردوه اهله مساكين ما عندهم شيء، أمه تبكي وأبوه يتحرج، ظروفهم كعبة ودايرين الولد يقرأ ياهو رأسمالهم وكت يكبروا والظروف تضيق أكتر. اها الشافع وكت احراج الطرد كتر عليه والمدرس البليد كل مرة يقول ليه : وكت اهلك فقرانين قراية شنو العليك ما تمشي تشتغل تساعدهم؟ اها الولد وكت تعب وما داير الاحراج وما داير يحرج اهله ، شنق نفسه بحبل ومات!

قال شيخ سعيد: بالله دة راجل دة؟ يعير ولد صغير جاهل بفقر اهله؟ سبحان الله، في الزمن الفقر، الفقر بقى عيب! مدرسين آخر زمن همهم بس القرش، زمان المدرس دة يربي الحلة كلها وهو اكتر زول فقران ورافع راسه لأن الراجل زمان كان بأخلاقه وكلمته. والله لو اعرف للمدرس الجاهل دة طريق الا بعكازي دة أجيب اجله.

علق شيخ النور: يا اخوي هي خربانة من فوق، المدرس كمان مجبور زيو زي بتاع الضرائب ولا الزكاة البيرسلوهم ليك. حكومة عملت التعليم استثمار وشركات ، بقى المدرس ما عنده ضهر، دخل سوق الله اكبر زيو وزي اي سلعة.

قال الاعرج الدنيا تغيرت يا ناس، مشت لا ورا لغاية ما بقوا العيال الصغار يكتلوا نفسهم والحكمة يقولو ليك دولة بتاعة اسلام. دة اسلام ؟ امال الكفر كيف؟ وين رحمة الاسلام؟ مسلمين جعانين ما عندهم شيء وابات دقون الحرامية نهبوا البلد، حرم قالو العيال فى مدارس كتيرة، فسحة الفطور ما بيمرقوا لأن ما عندهم شيء يأكلوه، بيوتم فاضية .

ارتفع في تلك اللحظة صوت أذان العصر، رفع فارس جسده من الأرض استعدادا للذهاب،

قال الاعرج: يا كافي البلا وكت يسمع الاذان يطفش طوالي، الشئ تقول ابليس!

قال فارس والله انا بس ما مستعد للصلاة!

انتظر قال عمك سعيد، حاج توراب جايب غداء كرامة ، بنته الكبيرة وضعت وكانوا ضابحين

جلس فارس على الفور وقال: كان كدة بنحضر الصلاة!

ضحك سليمان وقال: من جاور قوما أربعين يوما، بقيت كوز اصلى، ما تصلى لو ما عرفت حقك!

حين وصلت صينية الاكل، هجم فارس على صحن اللحم، في تلك اللحظة دخل الزين إلى المسيد ووقف فوقهم: ما قلت عيان وعندك اسهال يا ابن الكلب، تراك هاجم على اللحم زي الكلب؟

دفع فارس اللحم في فمه ومسح بيده الزيت المتدفق حول فمه، اخرج علبة دواء من جيبه ورفعها في وجه عمه:

ما خلاص جابو لي الدوا يا عمي!

9

بعد صلاة الظهر في المسيد إستلقى العم سعيد على برش الصلاة ليستريح قليلا ، كان شيخ النور يتحدث مع صلاح الجاز أمام المسيد ثم إنضما للحاج سعيد وجاء سليمان الأعرج بعد قليل.

رفع حاج سعيد جسده من على برش الصلاة وأصلح الطاقية القديمة فوق رأسه الأشيب وقال:

والله يا اخوان فارس دة زول ما ساهل، والله سبحان الله تشوف فارس هناك في البنك ما تشوفه هنا مافي زول جايب خبرو. بالله وكت دخلنا البنك الناس دي كسرت عليه، اليقول ليه يا شيخنا ويا مولانا انا قلت البنك يمكن حق الزول دة. اها المدير جة جاري وفارس واقف ما شاء الله بالجلابية والعمة والملفح تحلف تشوفو تقول الزول كوز كبير ولا شيخ طريقة. ماسك ليه سبحة صغيرة ويسبح انا متأكد هو ذاته ما بيكون عارف الناس وكت تسبّح تقول شنو. المهم دخلنا مكتب المدير وبعد شربنا الشاي والقهوة فارس قال ليه : عمي داير ليه سلفية ، الموسم قرّب، بعدين عمي دة مع انه كبر شوية لكن ما شاء الله بيقيف في الزراعة بنفسه، بيجيب مزارعين معاه لكن اربعة صباحا بيكون واقف فوقهم. وقال للمدير : ما تشوفو كدة ماشاء الله لسة زول نصيح هسع قبل كم شهر مرته الصغيرة ولدت. دة السمن، عمي دة يحب السمن

يشربه وكمان ينقط كل يوم في النخرة! عشان كدة ما شاء الله لو اداك بونية يعمل ليك حبس بول.!

ضحك المدير وقال ما شاء الله ، ربنا يبارك في عمرك يا حاج. وشيخ فارس دة زول عزيز علينا ما بنرجع ليه طلب. انا مسكت خشمي في اخر لحظة كان قربت اقول : شيخ منو ؟ وكت المدير قال شيخ فارس.

المدير ملا الورق براه. مضيناه ومرقنا. وكت مرقنا برة. المدير مسكو على جنبة وقعد يتكلم معاه. انا في الحقيقة استغربت لأن فارس البعرفو دة ما عنده موضوع يتكلم فيه الا بس ياهو العرقي كويس، العرقي ما كان نضيف. ادونا حقنا. وان قبض يكورك: لا تبديل لشرع الله. وتاني ما في شيء. وكت راجعين سألته: كنتو بتقولو شنو انت والمدير؟ داير يستهبل قال لي دة شغل تنظيمي نحن الاتنين مؤتمر وطني!

قلت ليه سجمكم، ومؤتمر وطني ذاته كلام شنو التقولوه، ناس المؤتمر ديل ما ناس كلام ناس فعل بس. اسرق القروش دي ، اكتل الزول داك. انا داير اعرس مثنى وثلاث، داير اخلف الزول داك في اهله، ياهو دة حكمهم وسياستهم.

قال لي : خايف اقول ليك تمشي تكلم عمي الزين!

قلت ليه سرك في البير، نفس البير بتاعة المترة الاندفنت بالتراب لأن كم سنة الوابور راقد.

قال لي صراحة الزول دة عنده ولده بيبول في السرير وكت ينوم وانا قاعد اعالجه ليه!

ضحكت قلت ليه بقيت دكتور من ورانا ولا ايه!

قال لي دكتور شنو، بالبخرات ! بركة ساكت، الناس دي كلها تجي تتبرك فوقي. انت ناسي شيخ الامين جدى كان فقير بيعالج الناس؟

ضحكت يا الاخوان لغاية ما وقعت الارض. صحي النار تلدي الرماد، انا ذاتي نسيت ان شيخ الامين صحي جده.

قال لي يا زول الضحك بدون سبب قلة أدب، وانت ذاتك والله ما تبوس لي يدي الا يوم اسخطك!

قلت ليه : قلت ليه أولا أنا عندي ألف سبب للضحك، ويدك بنبوسها لو غسلتها من ريحة العرقي، بعدين ناسك ناس الانقاذ خلو فوقنا حاجة تتسخط؟ الما سخطوه بالجوع والمرض اتسخط بالهموم، اي زول توزنه تلقاه نقص النص من السنة الفاتت. و الناس دي كلها ماشة في الشارع تتكلم مع نفسها. الزول تشوفو من بعيد ماشي ينضم براه تقول يمكن شايل ليه تليفون ولا حاجة، يجي يفوت جنبك مافي تليفون في ايده ولا أي شيء، وينضم ويضحك، مونس نفسه براه في امان الله!

تذكر صلاح الجاز شيئا وقال: قبل ايام مشيت الخرطوم قعدت لي قدام ست شاي اشرب لي قهوة. جا ماري جنبنا ولد شاب شعره مبهدل تقول ليه سنين ما شاف حمّام ، ولا بس ليه هدوم كدة تقول سنة ما غيّرها. اها ماشي يشتم في الحكومة، ويأشر على العمارات الطويلة ويقول : قروشنا اكلوها الحرامية وسووها طوب وحديد. دقونهم جارة في الواطة وسرّاقين، تسمع الله أكبر تقول خلاص بدر الكبرى. وهم صعاليك حرامية ساكت. انا استغربت لأن سامع

البلد دي مافي زول يقدر ينضم فى الحكومة والا يروح فيها مافي زول يعرف ليه خبر تاني.

في راجل كبير قاعد جنبي شافني مستغرب قال لي: الولد دة جنّ جديد!

قلت ليه الفرق شنو بين الجن القديم والجديد؟ قال لي كلنا مرينا بالمرحلة دي، دة الفلس! اولادك عيانين ما عندك حق الدوا، جعانين ما عندك حق العيش، دايرين قروش للمدرسة، اها تعمل شنو، تقطع هدومك وتطلع الشارع براك تشتم الحكومة، تجدع الناس بالحجر، بعد شوية وكت تفتر براك تعقل، تقعد، حتعمل ايه. بس لازم تتاكد تكون بتشتم براك لو لماك مجنون اقصد زول تاني دة يبقى تجمهر تلقى نفسك الطيارة قامت ويدقوك بخرطوش الموية لغاية ما تعرف حاجة.

علّق شيخ النور ضاحكا: زمان كان في زول في شارع البلدية بيقيف اليوم كله يشتم النميري، ما كان في زول بيسأله لأنه عرفوه مسكين عنده ظروف وكدة. وكت جات الانقاذ وقف كم يوم يشتم، ديل طبعا ما بيفرزوا نصيح من عيان لموا فيه دقوه دقة نضيفة، مسك خشمه وقعد. قبل سنين كدة قابلته في مناسبة قلت ليه مالك وقفت تشتم ناس الانقاذ ديل. ضحك وقال لي بالجوع مروة نشتم بيها ذاته بقت مافي!

أمّن صلاح الجاز على كلامه: والله فعلا ديل ما بيفرزوا، مرة لقوا حسين ود حاج علي، طبعا هو مسكين عيان عنده مرض كدة بيكون ماشي وبيرجف طوالي، مرة ماشي في الشارع في امان الله، مروا بيه الجماعة بتاعين النظام العام. وكت لقوا الزول بيرجف قعدوا يكوركوا الله أكبر، قايلنه سكران البهائم.

وقفوا رفعوه في البوكس، وماشين عشان يجلدوه، ويكبروا تقول حرروا فلسطين. الكويس كانوا قابضين ليهم زول من الحلة الفوق بيعرف حسين، قال لواحد من العساكر يا جماعة الزول دة مريض ، الزول دة ما قعد يشرب، كلموا الضابط قال ليهم الا نودي لي الدكتور هو اليقرر. اها وكت وصلوا ودوه المستشفى الدكتور الظاهر زهجان من العساكر والكيزان، كشف عليه وقال ليهم لو جلدتوه مليون جلدة الرجفة دي ما بتروح الزول دة عيان! اضطروا خشمهم ملح ملح فكوه ساكت!

قال شيخ النور: الدين دة سترة ما فضيحة والا ما كان قالو في الزنا جيبو اربعة شهود عدول، زمان وكت بنت تحمل بدون زواج، براحة كبير الحلة يلم ابوها وابو الولد ويعقدوا ليهم والموضوع انتهى ، ودة الدين سترة من الفضيحة. هسع يجوا ناس النظام العام يقبضوها ويقبضوا اي ولد تجيب سيرته تبقى فضيحة وسيرتها علي اي لسان. وفي النهاية يجلدوها في المحكمة لأنها قذفت الاولاد وما عندها شهود عدول! الناس ديل رافعين الدين سوط عشان يذلوا الناس. بعدين هم عندهم فهم ان السلطة دي هيبة، تلقاهم من رئيسهم مربطين وشهم ومكشرين، ويقول ليك مافي تهاون في دين الله. وهو حرامي وكذاب. تاني دين شنو الداير يتكلم فيه.

قال فارس الذي جاء متأخرا: يا اخوانا مهما كان رأيكم في الناس ديل لكن الناس ديل جاهدوا عشان ينشروا الدين!

قال سليمان الاعرج: وانت ليه ما مشيت جاهدت؟ ولا خفت الموت!

!الومت كان بموت شهيد وبعرس الحور العين

قال حاج النور: والله تشمهن قدحة. طيب داير أسألك ما دام عامل فيها مجاهد. انت وقت كان بيعقدوا للشهداء بتاعنهم على الحور العين البيكون وكيل العروس منو؟

ضحك شيخ سعيد وقال: يكون بي ترابي!

ترابي كان المأذون وفي النهاية وكت اختلف معاهم، قال الناس العقد ليهم ديل كلهم ما شهداء، ماتو فطايس ساكت.

قال شيخ النور: طول عمرنا دة فى دينا البنعرفه، صلاتنا وصيامنا وصلة ارحامنا، جارك اقرب من ولد امك وبيتك مفتوح للغريب والقريب، لا زول يبيت جعان لازول بيتظلم. الناس ديل جوا من وين عشان يقلبوا حياتنا دي كلها ويورونا الويل.

ثم نظر إلى فارس وحاج سعيد وقال:يعني مدير البنك كمان كوز؟

قال سليمان الاعرج : طبعا لازم يكون كوز، ولد حاج نورين كان شغال في بنك في الخرطوم قال كل كم شهر يرسلوا ليهم مدير جديد، مؤهلاته كوز، لا خبرة لا أي شيء، اها قال اول يوم يجي البنك يقلع جلابيته يعلقها ويقعد بالعراقي ويقول ليهم شوفوا لينا دابة! يقصد لاندكروزر، اها أول ما يستلم الدابة تاني مافي زول يشوفه، يطلع سفريات ياخد بدل سفر بالدولار كم شهر يصلح احواله ويجيبو في مكانه واحد تاني، ما هودة التمكين الليقولو!

وقال شيخ سعيد: انت ليه يا فارس قلت لي ما اكلم الزين بحكاية علاجك لود المدير بالبخرات!

قال فارس: الزين لو عرف حيمشي للمدير يقول ليه شيخ الامين ابوي انا ودة ولد صعلوك ساكت. والمدير لو عرف الزين ولد شيخ الأمين حيبقى هو الشيخ المعتمد للمدير وأفقد أنا وظيفة شيخ البنك! ونرجع تاني للفلس والعطالة!

10

في المسيد كان فارس المجنون نائما تحت شجرة النيم، ايقظه حاج سعيد لصلاة العصر، لكنه قال وهو نصف نائم: صلوا انتم انا بحصلكم!

تحصلنا وين هي صلاة ولا غداء؟ وكمان عامل لينا كوز وتقيف تكورك في الناس بعد صلاة الجمعة، إخشوشنوا فإن النعم لا تدوم! وينها هي النعم؟ إنت وأهلك الكيزان نهبتوا النعم الفي البلد كلها. الناس طبيعي مخشوشنة ما محتاجين لخطبة منك ومن ناسك الحرامية! توقف حاج سعيد عن الكلام حين سمع صوت غطيط فارس، فدفعه بقدمه قائلا: طيب زح كدة شوية خلينا نصلي انت مالي البرش بجسمك الكبير دة.!

استيقظ فارس وجمع جسده من فوق الحصير وجلس يلف عمامته القصيرة الممزقة الأطراف فوق رأسه، ثم قال: قول ماشاء الله داير تسحرني جوة المسيد

ضحك حاج سعيد وقال: تخاف من العين كمان؟ هسع العين تعمل ليك شنو؟ عضمك قوي لو ضربك مدفع، تنفض هدومك من التراب وتقوم تمشي!

كان فارس يغني بصوت مثل حمار أغنية كانت في الواقع خليطا من أغنيات قديمة مع بعض أغاني قوات الدفاع الشعبي، ثم رفع جسده كأنه يهم بالذهاب، فكر قليلا ونظر خارج المسيد ثم عاد ليجلس على حصير الصلاة ، صمت قليلا ثم قال:

الناس وكت تكبر تعقل، ناس الحلة دي وكت يكبروا يجنو وعينهم تبقى حارة، هسع الزين عمي دة زمان كان كويس، هسع عينه تقد الحيطة، مرة مشى للمساعد الطبي لقاه زارع العيادة بالخضروات بموية طلمبة اليد، قال ليه والله انت شديد، نحن قدر دة بالوابور ما قادرين نزرع!

قابلت المساعد بعد ايام قال لي عمك نجمني، قلت ليه ما دفع ليك حق الدوا؟ قال لي دوا شنو، سحرني داير يخرب بيتي، جة لقى المحل ملان خضار قال لي دة نحن بالوابور ما قادرين نزرع قدره، انت زارع حواشة بطلمبة اليد!. من اللحظة ديك طلمبة الموية وقفت من سحب الموية جبنا زول يصلحها ما قدر يعرف المشكلة شنو، بقينا موية الشراب ما لاقينها والخضار المزروع اتحرق بالعطش!

لم يحضر احد لصلاة العصر، صلى حاج سعيد لوحده، وبعد أن فرغ من صلاته إلتفت نحو فارس : والزين وين اليومين ديل ما ظاهر؟

مشى الخرطوم يعالج مك الدار عمتنا.

مالها مك الدار هسع قريب دة مش وداها عملت عملية؟

ايوة انا مشيت معاه، كان عندي غرض في الخرطوم قلت ارافقهم، عمي الزين طبعا ما قعد يدي مك الدار حاجة من حق التمر ورثة جدنا، ياهو بس ساكنة معاه تاكل وتشرب، وكت بقت تتكلم وقالت دايرة تعرف حقها لأن محتاجة قريشات تسافر الخرطوم تزور اختها هناك، اها ساقها الخرطوم، اصلا هو كان ماشي، يحب دايما في الصيف يمشي هناك يقع الانادي، يحب الشراب النضيف. اها وهمها قال ليها انتي عيانة نمشي نعالجك، قال

ليها يا مك الدار انتي كل يوم راقدة جيبوا لي الحكيم، زمان العلاج كان مجان، الكيزان جو عملوا العلاج بالقروش، حقك من التمر كلو قاعد يمشي للمساعد الطبي والدكتور، بعدين التمر ذاته اكتر من النص وقع ، وبالعطش قليل منو بينتج، الكيزان نشفوا البلد حتى الموية التحت الواطة راحت، والجاز غالي ما بنقدر نزرع تحت التمر كله.

في الخرطوم وداها للطاهر ود عمتى السرة، نحن كلنا سامعين الطاهر قرأ وبقى دكتور، لكن دكتور بتاع شنو مافي زول عارف، الزين أشّر لمك الدار و قال للطاهر:

سوق امك دة ، عالجو كويس!

الطاهر عارف حركات خاله، قال ليه:

عندها شنو؟

ارتبك الزين من السؤال، يظهر انه ما كان عارف مرض مك الدار، وهو عامل قدام الناس انه مهتم بيها وجايي مخصوص عشان يعالجها!

رد بعد تردد: انا عارف، ثم استدرك كأنه تذكر شيئا: عنده كحة!

إبتسم الدكتور وقال: معقول يا خال عنده كحة تجيبو لدكتور اسنان؟

الزين طبعا اصلا ما بيستسلم، حك راسه وقال: انا عارف، ما قالو لي انت دكتور شاطر، على كل حال في الاسنان كمان بيتلقى عنده مشاكل، سنونه دة يطحنو الأكل من زمن حفروا البحر، اكيد يكون فتروا ودايرين عمرة!

المهم قام بتحويل مشكلة الكحة بقدرة قادر إلى مشكلة في الاسنان، عندها فاجأه الطاهر: انا دكتور أمراض جلدية.

تردد برهة وقال: جلده قديم، عنده مشكلة في الجلد، قبل زمن كان عنده نشاف في الجلد وديناه البصير عالجه بورق الصبار والقرض، بقى كويس لكن اظن رجع ليه نفس المشكلة تاني. بعدين لو قدرت عالجت جلده دة الكحة كمان ما بيغلبك.

اقول ليك كلام يا خال انا ذاتي ما دكتور جلدية ولا اسنان انا بيطري!

صاح الزين وقد اصيب بالاحباط:

بتاع حمير وبهائم؟

ايوة.

يا زول خلي الكلام دة بيناتنا نحن في البلد هناك قاشرين بيك، ولدنا دكتور أخصائي، اي زول عيان والا دايرين منه مصلحة نقول ليه، عندنا ولد دكتور شاطر لو احتجت ليه تعال نديك تليفونه تقابله في الخرطوم، ثم فكر وقال، على كل حال مافي زول بيفرز، الناس تعبانة وما عندها حاجة لو كشف عليها بتاع ناس بتاع حمير ما فارق معاها المهم يكون مافي دفع، والعلاج معروف، براي انا بمشي الاجزخانة بشيل الدوا ، دكاترة اليومين ديل اول شيء يودي السماعة فوق جيبك، لو ما سمع حركة، ما بيشتغل بيك الشغلة ! لو سمع خشخشة بعد داك يوديها فوق القلب! اساسا انت لو جيبك ملان قلبك يدق زي الطاحونة! خوف ساكت يفضو ليك جيبك!

اها نازلين بيت عمتنا، كل يوم يصحيني الدغشة ويستعجل عمتنا تجهز الفطور عشان عندنا مواعيد مهمة مع دكتور، وكت نمرق الشارع يقول لي: اها نمشي على وين؟

قلت ليه انت بعد استعجالك دة كله ما عارف ماشي وين؟

. لأ يعني حنمشي وين، شوف لينا اقرب انداية!

قلت ليه : والدكتور القلت عندك مواعيد معاه؟ يضحك ويقول: الإندايا أحسن من المستشفى، مستشفيات اليومين ديل تدفع قروش ومافي علاج. في الانداية تدفع والعلاج سريع، مفعوله يبدأ قبل تدفع. تدخل الانداية عيان وتعبان ومهموم وتطلع منها بعد يغسلوا روحك، زول جديد لنج! ثم فكر قليلا وقال: المشكلة في زمن الكيزان دة، تتعالج أول ما تطلع برة تقابلك المشاكل اليومية ترجع تمرض تاني! لو كانت الأحوال كويسة كان الواحد سكن في الانداية ما يطلع منها تاني الا تتقلب! ضحك ثم قال: الحكمة برا الانداية الناس كلهم حرامية وكضابين، أي زول داير ينهبك. الكيزان دخلوا الخوف في قلوب الناس، جوة الانداية كل شيء تمام. ما في زول يغشك ولا ياكل حقك! قعدت مرة اسبوع في انداية، ما عارف الليل من النهار، وكت وعيت، قلت محفظتي تكون اتنهبت، لقيت كل شيء تمام، ساعتي كنت قلعتها بدون اشعر ختيتها جنبي، لقيتها قاعدة مافي زول مشى جنبها!

بعد ان نصل الانداية ونبدأ في الشراب، وكت يتكيف من الشراب يقول لي: شفت الدوا دة سمح كيف، العلاج دة اصلو الا حباية وكبسولة، بعدين الدواء اليومين ديل كله مضروب، يا مدته منتهية. الكيزان وكت ما لقوا حاجة يسرقوها بعد باعوا الواطة ومشاريع الزراعة ومؤسسات الحكومة، بقوا يغشوا في الدوا! وكلما داير شراب ينادي لست الانداية: يا دكتورة تعالي!

في الانداية لقينا خلق كتيرة فيهم أجانب كمان، وكت سألنا من الأجانب حكوا لينا قصة الخواجة الكان بيمشي كل يوم انداية في الخرطوم ، لكن الظاهر انداية مجيهة، فيها الويسكي، اها الخواجة كل يوم يطلب كاس ويسكي يشربه ويمشي، الا يوم جة طلب كباية عرقي، شربها، العرقي من شدة نضيف وقوي، لامن الخواجة وقف على حيله والكلام غلبه، اها تاني يوم برضه الخواجة جة قال داير كباية عرقي، ست الإنداية قالت: سجمي الخواجة دة اسلم ولا شنو؟

سكرنا ومرقنا قال لي شوف لينا محل تاني ننبسط فيه باقي الليل دة، واي زول يسأله مالك في الخرطوم يقول ليه والله اختى مك الدار عيانة جبناها للعلاج! في الفترة القعدناها ما شاف مك الدار الا يوم سلمها للدكتور، بعد داك كل يوم وكت نصحى من النوم بتكون هى طلعت للمستشفى مع الطاهر وكت نرجع بالليل بنكون سكارى ، الزين بيكون نسى هو ذاته منو خليك من اختة!

11

كنا نجلس في ضوء القمر بإنتظار طعام العشاء أمام المسيد، هواء الليل البارد يهب مشبعا برائحة الجروف، وبقايا رائحة فرح غابر غاب في متاهة الأزمنة، أصوات حزينة كانت تقترب وتبتعد من على البعد كأنها قادمة من عوالم أخرى، مثل أشباح ضوئية تختبئ في الليل من ضوء النهار. تنثر في العالم حزنا وخوفا غامضا، كنت منزويا في ركن مظلم مستندا بظهري إلى جدار المسيد، كنت كمن يخفي شيئا ما لا يريد أن يراه أحد. أريد أن أكون حاضرا ومنسيا في الوقت نفسه. لا أفهم حتى أن كراهيتي للعزلة وحرصي على التواجد منزويا في الزحام، لم يكن سوى خوف من الموت. أكتفي فقط بالنظر خلسة بين الفينة والاخرى نحو السماء ، نفس السماء التي عبرها طائر الموت الذي إختطف أسرتي ، كأن السماء ستكفّر عن ذنب طائر الموت، بالنجم المذنّب الأحمر الذي ظللت في إنتظاره طوال سنوات ليمنحني سلطة إستثنائية مؤقتة على الزمن.

قطع فارس صمت الحزن بقوله:

حكومة الجوع الفقر دي حتتحل من رقبتنا متين!

علّق سليمان الاعرج: مؤتمر وطني وكت يشتم الحكومة معناها يا داير ليه قرشين يا عاوز يبقى وزير!

وقال شيخ النور: أو يكون وزعوا ليهم غنيمة بيناتم وما أدوه حقه!

قال شيخ سعيد: فارس يبقى وزير!

ضحك شيخ النور وقال: أهم مؤهل عشان يبقى وزير عنده، ما بيفرز حق الناس من حقه! كلنا أخوان وكدة!

ضحك الاعرج وقال يعني إنت لحنتها يا شيخ النور ما تقول بالواضح حرامي!

إقترب صلاح الجاز الذي كان يدخن سيجارة القمشة بعيدا منهم قليلا وقال: سمعت في الخرطوم قالوا التوزير إنت وحظك، في زول قالوا بيفتش في شغل ساكي مكاتب العمل والشركات وما خلى زول بيعرفو، يمشي أي مكان يقولو ليه انت يا دوب اتخرجت وخبرة ما عندك، ما بنقدر نشغلك، واحد نصحه قال ليه سوي ليك دقينة أمورك بتسلك، عمل دقينة برضو مافي فايدة، الجماعة ديل بقوا يفرزوا جماعتهم لأن الدقون كترت، أها يوم ضرب ليه زول في الموبايل، قال ليه منتظرنك تعال أحلف، افتكر إن الموضوع محكمة ولا شهادة حيمشي يحلف القسم، قالو ليه تعال في مجلس الوزراء، إستغرب قال يمكن الحرامية كتروا هناك عملوا ليهم محكمة براهم، زي المحاكم البيعملوها لشركات الاتصالات وكدة! ركب ليه دفار نزله في شارع البلدية وتم الباقي بكرعيه.

وكت وصل، لقى حرس أداهم بطاقته، فتشو إسمه في اللستة و دخلوه، لقى زول سلم عليه وفي صف بتاع ناس واقفين وقف معاهم، ويعاين للزول السلم عليه ويقول يا ربي الزول دة أنا شايفه وين، سأل الزول الواقف جنبه إنت الزول دة منو؟ أنا شايفه قبل كدة!

الزول ضحك و قال ليه: تكون شفته في التلفزيون! بعدين قال ليه: يازول انت ماك نصيح ولا شنو؟انت ماعارف دة الرئيس؟ أمال جايي هنا ليه؟ انت مش جايي تحلف القسم؟.

زولك عرف في شيء غلط، لكن قطع الحركة لامن وصل المصحف وحلف، أها وصلوه مكتبه وأدوه العربية ، قعد كم يوم لا شغل لا مشغلة، وما عارف يعمل شنو، يقرأ الجرايد ويشرب الشاي والقهوة لامن هو ذاتو إحتار يا رب أنا وزير ولا مساعد رئيس! بعد كم يوم جوا قالوا ليه معليش في غلط حصل، تشابه أسامي، لكن حرّم ما بنخليك تمشي ساكت، حنعملك مدير لشركة تحت التأسيس، وبعدين غمتو ليه قرشين ورفدوه!

قال فارس: والله دي انا ألقاها باب المسيد دة ما يمرقني، بعدين ما في حاجة اسمها حصل غلط، الماشي صاح في البلد دي كلها شنو؟ والله ان دقسوا عينوني وزير ما أسلمها تاني الا عيسى!

ضحك شيخ النور وقال: ياهو دة الاتعلمتو من الكيزان؟ تمسك في اي شيء لغاية تموت! بعدين اسمك دة ما بيغلطوا فيه، مافي غيرك في البلد كلها زول اسمه فارس، لو دايرهم يغلطوا في إسمك الا تغيرو!

أعلن فارس بغضب: خدعوني الكلاب، طلبوا مني أن أتنازل عن الترشح في انتخابات الولاية، قالوا حنعينّك مدير لشركة تابعة للزكاة او منسق دفاع شعبي، اتنازلت لا قرش لا تعريفة، بعد الانتخابات انتهت عملوا نايمين! لكن بعد كلامكم دة لو دايرني تاني الا ابقى وزير، الناس بالغلط عينوهم، انا اخدم

فيهم من ايام رطل السكر كان بعشرة قروش، صغّرت نفسي وانا ولد شيوخ ولميت الحرامية، وفي النهاية يمرقوني بقد القفة!

اها وداير تبقى وزير شنو؟

ما بفاصل كتير، شئون دينية، وزير خارجية، اي حاجة! محلات اللبع التقيل عارف ما بلقى فيها فرقة، زي البترول والمالية!!

اها وبعد تبقى وزير تاني بتجي علينا هنا في المسيد؟

طبعا انا لازم اكون قريب من الشعب، بس لو شرفتكم في اي مناسبة لازم تدفعوا حاجة ما دام حتقشروا بي! ولازم تقولو لي سعادة جناب الوزير! الكلام دة عاجبني من ما سمعته مرة في التلفزيون!

قال شيخ النور: مفروض انت تدفع لينا ، اذا هسع انت مطلوق ساكت كلامك كله كضب وكت تبقى مسعول كبير حتعمل شنو؟

ضحك صلاح الجاز وقال ذكرتوني بقصة مسعول كبير دي مشيت مرة افتش شغل وداني واحد قريبنا لي زول كوز كبير، دقنه في الواطة. قريبنا شغال معاه بيشتري ويبيع ليه حاجات الظاهر عشان هو مسئول في الحكومة ما عاوز يظهر في السوق ، قال لي عندي مزرعة كبيرة بس لسواق ما عندنا شغل كتير لأن السماسرة بجو يشترو الخضروات بعرباتهم ما بنحتاج نرحل حاجة، بس ممكن مرة في الاسبوع تمشي تجيب مستلزمات المزرعة لو احتاجو شيء من السوق، وباقي الاسبوع تساعد شوية في تسميد اشجار الليمون. تنقل روث البقر والضأن وتفرشه تحت اشجار الليمون. اها وكت خلص من الكلام معاي قال لقريبنا دايرين نفتتح المصنع وعشان نعمل دعاية

كويسة انا مفكر نجيب مسئول كبير كان رئيس كان نائبه عشان يظهر في الافتتاح. قريبي استغرب وقال ليه معقول مسئول كبير حيجي يفتتح ليه مصنع صلصة؟ الكوز قال ليه كله بحقه، تتفق مع سكرتير المسئول أو واحد من أهله وتديه حقه، لو عندك طهور ممكن المسئول الكبير يجيك ويشرفك!

بدا سليمان الاعرج متشوقا لمعرفة اخبار الكوز ومزرعته ومصنع الصلصة: اها والشغل كيف ولقيت المزرعة كيف؟

قال صلاح الجاز: رفضت الشغل معاه، وكت مرقت مع قريبي قلت ليه ياخي شوف لي شغلة تانية انا زول حديد وما بفهم الا في سواقتي دي، بعدين ياخي انا عندي رخصة تعبت فيها ممكن اركب بيها فوق زول اسوقه! يجي كوزك الحرامي دة داير ينقل بي الزبالة؟ وعدني قال لي وكت نبدأ شغل في المصنع بنحتاج سواقين. انتظرته اسبوعين وكت ما رد علي، الفلس حصل والاولاد في البلد ما عندهم شيء قلت احسن احصل ازرع لي شوية قمح يا أمشي الدهب لغاية ما تفرج!

قال النور: وما عرفت المسعول الكبير دة بيأجروه بكم اليومين ديل؟

علّق فارس : لو عندك افتتاح لي حاجة تعال علينا نحن اسعارنا مهاودة!

علّق سليمان الاعرج: انت من زمان شغال ببطنك متذكر وكت كانوا بيأجروك بالطحنية عشان تدق الناس في الاسواق؟

قال حاج سعيد: الولاية دي كلها زمن الانجليز كان حاكمها زول واحد راكب جمل وحايم يشوف مصالح الناس، وكل شيء كان ماشي زي الساعة، هسع والي ووزراء بوزاراتهم ومجلس شعب ولائي برئيس ونائب ونواب، ومحافظات

ومحافظين ومساعدينهم ونوابهم ومديرين وضباط اداريين وبعد دة الناس تعبانة ومافي خدمات وكمان عليهم يدفعوا مرتبات ومصاريف الجيش دة كله، لا تعليم لا صحة ولا حتى أمان، قبل أيام لقيت المحرات العمره اكتر من خمسين سنة اتسرق، الناس جاعت ومع الجوع مافي أمان، الاولاد بقوا يلقوا اي حديد يسرقوه يودوه يبيعوه لناس مصانع الحديد. ركبت ساعة وصلت نقطة البوليس قلت اعمل بلاغ يمكن واحد يلقاه بالصدفة يبلغ. العسكري قال لي المحرات دة تاني الله اعلم يتلقى احسن تستعوض ربك! قلت ليه وكت انت تقول كدة أمال امام الجامع يقول لي شنو؟ قال لي ما مشكلة ممكن نعمل ليك بلاغ لكن كدة امشي السوق جيب ورقة وقلم عشان نعمل ليك البلاغ! قلت ليه ياخي انا كمواطن قاعد ادفع ضريبة رغم ان الحكومة ما بتقدم لي اي خدمة، ولو مرضت ولا موسم زراعتي فشل مافي زول بيسأل علي، هسع من قروش البترول المليارات الدخلت البلد وما معروف مشت وين دي، ما بلقى لي منها ورقة وقلم بس؟

قال شيخ النور: أمن المواطن دة ما شغلهم لكن كدة اقيف في اي محل وقول الحكومة ظلمتني، والله محل يودوك الجن ما يعرفو

وقال سليمان الاعرج: انت يا حاج سعيد وكت مشيت تسأل من حقك تطلب ورقة وقلم بس؟ يا حاج سعيد البترول دخّل للبلد دي اكتر من مائة مليار!

قال فارس: والسد البنوه ليكم والشوارع!

ضحك سليمان وقال: السد بنوه ليهم ما لينا، بعدين ياخوي قروش البترول مليم منها ما دخل السد، السد دة اتبنى بديون مية سنة ما ندفعها! بعدين يا

خي غير قروش البترول الدخلت البلد وما شفنا منها حاجة دي، وين قروش الأراضي والمشاريع والمؤسسات الاتبنت من عرق ودم المواطن، الباعوها لناسهم وللأجانب؟

بصق فارس بصوت مسموع وقال: يا جماعة نحن مستهدفين والبلد محاصرة!

ضحك النور وقال: الحصار دة بس على جهتنا، جهة حكومتك عايشين في امان الله ساكنين القصور وراكبين افخم عربات. اصغر مسئول راكب عربية تمنها يبني بيت والمستشفى عربية اسعاف تنقذ العيانين ما فيه، الحقيقة نحن المحاصرين ومحاصرننا كيزانك ديل بكضبهم وسرقة حقوق المساكين.

ضحك الاعرج وقال: وانت مالك بسرعة رجعت هسع ما كنت بتشتم فيهم!

لم يرد فارس، حضر أحد الصبية يحمل صحن العشاء الضخم في ضوء القمر، شمّر فارس كم جلبابه وقال وهو يجلس أمام صحن العشاء: أنا مسافر بكرة أقابل الجماعة الكبار في الخرطوم، بقيت ما عندي ثقة في ناس المؤتمر الوطني هنا، مع ناس الخرطوم عندي كلمتين بس: يا الوزارة يا الغابة ! . اسبوع بس في الخرطوم وبرجع. جهزوا تور الكرامة وإنتظروني!!

12

بعد صلاة العشاء جلسنا في فناء المسيد، كنت الوحيد الذي يسترق النظر إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم أملا في أن يظهر نجمي الأحمر الذي ظللت أنتظر طوال سنوات. كان الشتاء قد إنصرم وإنشغل معظم الناس بجمع محاصيلهم وتخزينها أو تسليمها للبنوك. كان بعض الصبية يلعبون شليل في ضوء القمر في الساحة الملاصقة للمسيد. تخفف أصوات صراخهم وضحكهم أثناء اللعب من الكآبة التي تخيم على العالم، كأنهم يعلنون نهاية صمت وخمول الحياة في الشتاء، حيث ينشغل الجميع بالموسم الزراعي، وإستعادة صخبها مع هبوب أول خماسين الصيف.

كان الجميع يشعرون بالإرهاق بعد نهاية موسم زراعي ملئ بالمشاكل. بدت الحياة نفسها بالنسبة لهم مثل دورة لا تنتهي من الشقاء والمصاعب الموسمية.

قال شيخ النور: إنشاء الله التعب دة يجيب مديدة تامزين. بدل التعب البلا عائد دة أريت كان نمنا نومنا. بدل يبقى علينا فلس وكمان تعب ومرض! شغالين خدامين للبنوك نتعب ونساهر وفي النهاية ندي المحصول كله للبنك ونرسل لي للمغتربين في السعودية يرسلوا لينا عشان نشتري القمح!

رد حاج سعيد: والله كلامك صحي، زمان ولدي وكت ظروفه كانت كويسة في السعودية كان بيقول لي ما تزرع ، وكان بيسألني لو زرعت بتجيب كم شوال؟ ويرسل لي تمنها!

قال شيخ النور كأنه يتحدث مع نفسه: البرد ذاته راح في زمن حكومة الفقر، بسبب الحر الفول إنضرب بالعسلة، كان أملنا السنة دي يعوضنا شوية.!

قال سليمان الاعرج: ولو البرد جة، يجيب معاه الجراد.

عقّب شيخ النور: والله لو بلقى طريقة اغتراب ما أتردد، يا اخوانا ما بنفع انشاء الله أبقى غفير ولا راعي بهائم!

ضحك سليمان الاعرج وقال: قبل كم سنة، قبل ما الانقاذ تدخل العضم، جاني جواب من الخزين ود عمي عثمان، قال لي في سعودي بيفتش على عمال يسافروا يشتغلوا معاه لو دايرين تسافروا تعالو قابلوه يمكن يكون عندكم رزق وياخدكم معه.

سافروا الشباب كلهم أولنا طبعا سيد الاسم فارس، السنة ديك كان زرع أول مرة في حياته، وقبل ما يخلص من أول سقاية للمحصول شرد وسافر رجع في آخر الموسم وكمان بوشه القوي قال داير نصيبه من المحصول! الطاهر قال ليه : لو جبت لي تلاتة شهود إن عندك حق في المحصول دة بديك أكتر من حقك! فارس طبعا ما بيحب الشغل خاصة حش البرسيم، كان طوالي يقول البرسيم يعمل ليه حساسية! قال جسمه كله يورم لو دخل جوة البرسيم، هو طبعا ما داير يساعد عمه الزين، الزين كان الوكت داك عنده

برسيم كتير ويشحت الناس يساعدوه في الحش، وكت زهج من فارس قال ليه : أول مرة أسمع بي زول عنده حساسية من البرسيم، وانت طيب لو كان بقيت حمار كان بتاكل شنو؟ ! والا يربطوك في الحلفا؟

فارس كان بيقول: الزين يبيع البرسيم ويكب القروش في جيبه، وما يتذكرنا تاني إلا وكت يجي ميعاد الحش، عشان كدة انا كرهت سيرة البرسيم! بقت تجيب لي حساسية!

مشينا الخرطوم قابلنا السعودي، راجل شكله طيب، قعدنا معاه في الاستقبال بتاع الفندق..

قاطعه النور: ما شاء الله يا سليمان مشيت الخرطوم ودخلت الفنادق كمان! كان داير تبقى معارضة ولا شنو؟

تساءل حاج سعيد: معارضة شنو في الفندق؟

ضحك النور وقال: ما دايما الكيزان يقولو على المعارضين معارضة الفنادق! التقول هم الحرامية قاعدين في السهلة، يرسلوا الشفع الصغار يحاربو ليهم وهم عايشين في قصورهم عيشة الأمراء والملوك!

واصل سليمان: أها الراجل السعودي قال لينا أنا محتاج لناس يشتغلوا كويس واقدر اعتمد عليهم لأن عندي مزرعة كبيرة جايب فيها أبقار وجمال وبهائم.

قبل ما يكمل كلامه نط ليه فارس في حلقه وسأله: طبيعة الشغل الحنعملو شنو؟

الراجل قال ليه: حش برسيم!

فارس طوالي وقف وقال: والله البرسيم دة الجابنا هنا من البلد!

أها مشوا معاه اظن خمسة، منهم الطيب ود حاج سعيد، قالو هسع سوا ليه عقال وبقى ينضم زي سياد البلد يقول للعربية وانيت وللراجل ريّال، يا هو الدنيا وحالها! المسكين عرف كلامنا الميت دة ما بيأكل عيش!

ضحك النور وقال : وأنت ليه ما مشيت يا سليمان؟

قال سليمان: والله انا برضو كنت فاكر الشغل يكون خفيف شوية، يدوني كنبة أقعد أحرس لي باب، أراقب لي عمّال، لكن حش برسيم مع كراعي دي ما بينفع!

حدّق شيخ النور في القمر، شعرت برعب حين رأيت بريق عينيه وهو يحدّق في السماء، حين تجلّت لي الحقيقة الكارثة! كان مثلي يترقب ظهور النجم المذنب! لم يلبث طويلا في السماء، حذّق بإتجاهي دون أن ينظر في عيني كأنه يود أن يؤكد حقيقة ما فكّرت فيه، ثم حك ذقنه وتساءل: صاحبك مالو طوّل في الخرطوم المرة دي؟ كان واضحا أنه يتحدث مع سليمان، لكنني فهمت أنه كان في الواقع يوجه سؤاله لي.

ضحك سليمان وقال: قال ما بيرجع الا يبقى وزير! لكن بعد دة بيرجع، ما دام الموسم إنتهى بيرجع. الزين بداية الشتاء قال ليه تعال ازرع معاي السنة دي، قال للزين انا ماشي الدهب ما عندي نية زراعة تاني. تقول بلحيل كان ناجح في الزراعة. الكيزان غشوه وكت قال داير ينزل الانتخابات قالوا ليه إتنازل وحنعينك مدير لشركة، بدل يقبض ليه قرشين ويخلع! طمع، قال يمسك الشركة يلبع ليه لبعة كبيرة ويتقاعد بعدها، قال لي الكيزان نهبوا البلد

دي فرصتنا نرجع شوية من النهبوه! قبل بكلامهم لكن الجماعة أولاد كلب، مرقوه من الاتنين!

هسع قبل يسافر كتب ليه عريضة قال يوديها الخرطوم لرئاسة المؤتمر الوطني، كتب قال ليهم الجماعة هنا نهبو البلد، وخلوا الناس كرهوا الدين ذاته بعمايلهم. لدرجة في جزار في السوق اليوم كله يكورك: لو الناس ديل طاروا وجانا حزب بيقول لا تبديل لشرع الله، حرّم كلامي معاهم يكون بالساطور دة! بعدين هو يمشي يشتكي الخرطوم لي مين؟ تقول ناس الخرطوم بلحيل كويسين، والشغلة هي أصلا خربانة من فوق!

قال النور: لو كدة وجب نجهز لينا عتود للكرامة! يمكن الزول دة يرجع وزير زي ما قال!

قال حاج سعيد: عتود ولا تور؟

قال النور: عتود كفاية، فارس كضّاب حيجي يقول عملوني وزير عشان نضبح وياكل اللحم، وبعد داك يقول بدل يختوا اسمي عملوا غلط عينوا زول تاني لكن حيدخلوني في أقرب تعديل وزاري!

13

كنا نجلس أمام المسيد بعد صلاة العصر، كان موسم الدميرة قد إقترب وإنشغل أهل القرية بإصلاح سقوف البيوت وتدعيمها بزبل البهائم خوفا من إحتمال هطول المطر. أجلس في مكاني الذي أشعر فيه أن أحدا لا يراني، لكنني أرى وأنا جالس فيه كل شيء من حولي. حتى الإشارة التي بقيت سنوات في إنتظارها، كنت أؤمن أنني لن أراها ما لم أكن جالسا في مكاني هذا، ظهري لجدار المسيد، وعن يساري بيت متهدم تطل من داخل فنائه شجرة سدر ضخمة، وأمامي شجرة السنط التي تقبع القرية كلها خلفها. شجرة السنط كانتن يحيط بجزء منها جدار متهدم يقال أنه من بقايا ساقية ماء كانت تدور في المكان قبل سنوات طويلة، حين كان نهر النيل يغمر أجزاء واسعة من القرية. ولأن أرض القرية ترتفع تدريجيا كلما إتجهت إلى الجنوب. فقد كان بإمكاني رؤية الجزء الجنوبي من القرية حتى يغرق خط البيوت في كثبان الرمال التي يغطيها نبات الحلفاء وشجيرات الطرفاء.

لا يلاحظ أحد أنني كنت غائبا لعدة أشهر. تهب رياح قوية تغرق القرية في التراب، وحين ينجلي الغبار لا يلاحظ أحد أنني ظهرت أثناء العاصفة. كأن الناس إعتادت أن كل شيء يكون في مكانه أثناء العاصفة، لا يحدث تغيير يذكر يستحق الانتباه له بعد أن تنجلي العاصفة.

قال حاج سعيد: الكتاحة السنة دي شديدة، يمكن يكون في خريف قوي السنة دي. ربنا يستر المطر ما يجي يخرب علينا موسم التمر. البيوت ما مشكلة حتى لو الفيضان غرقها. لم يرد أحد، كأن حاج سعيد كان يردد كلاما مثله مثل خماسين الصيف، مثل برد الشتاء، أشياء لا يستطيع إنسان تغييرها أو حتى تعديل مواقيتها. لا يلاحظ حاج سعيد نفسه، أنه يردد نفس العبارة التي قالها العام المنصرم في نفس الوقت. كأنه يعيد تحذير المطر، الذي هطل بغزارة في العام الماضي. وتسبب في ضياع محصول التمر.

فجأة توقفت عربة بوكس قديمة وهبط منها فارس مرتديا ملابس الشرطة الشعبية

ضحك النور حين رآه بملابس الشرطة الشعبية وقال: نحن راجينك بالكرامة ترجع وزير، تجينا عسكري وفي العساكر كمان شرطة شعبية!

قال فارس: مشيت الخرطوم قابلت الريس! كان عندي معاه إجتماع مهم جدا، شرحت ليه الوضع كله!

وعشان قابلت الريس لابس كدة؟ يعني لو ما قابلته كان حتجينا عريان ولا شنو؟ بعدين الريس سمعنا قالو فاضي ما عنده شغلة كتيرة، لكن ما قايلين فاضي لدرجة يقابلك انت كمان! واتكلمت معاه في شنو؟

كان عندي اجتماع مهم مع الريس، اتناقشنا في الحاصل في البلد وفي الوضع الراهن زي ما بيقولو في الأخبار.!

ضحك النور: وانت هسع عارف الحاصل في البلد ولا عندك خبر الوضع الراهن؟

وقال حاج سعيد: خليك منو التليفة، ريسك ذاته عارف الحاصل؟

علّق صلاح الجاز: والريس فاضي ليك وين، قالو لو داير بس يسالم مساعدينه اليوم يروح قبل يسالمهم كلهم!

تساءل سليمان: قعدت في اجتماع معاه، يعني راسك في راسو عديل واتكلمتو؟

في الحقيقة بس انا سلمت عليه هو كان مستعجل شوية قال لي انا ماشي ابوجا وجايي!

يا زول طيب ما كان ترجاه لأن قالو وكت رجع من سفريته الجماعة الودعوه كانوا لسة في المطار!

قال سليمان الاعرج: قالو قبل يغير هدومه في الفندق سمع ان اوكامبو في البلد، رقد صوف على المطار!

ضحك شيخ النور وقال: فعلا قالو محل ما يسافر يقول لي الجماعة خلو الطيارة مدورة ما تبطلوها، لأن الظروف ما معروفة!

علّق صلاح الجاز: وين الصور ؟ دايما الريس وكت يسالم زول بيجيبوا الصور في الجرايد والتلفزيون!

جلس فارس أرضا معهم على حصير السعف وقال: في الحقيقة كان في زحمة شوية وما ظهر مصوراتي، الريس طلع سأل الجماعة وين ناس التلفزيون قالو ليه في طيّارة وقعت في المطار مشوا يصوروها!

ضحك سليمان الأعرج: يعني التلفزيون عندهم بس فد كاميرا! وكت تكضب ما تقول حاجة يصدقوها! نحن دايرين الصورة، غير كدة انت كضّاب وتكون قابلت ليك ضابط بشريط واحد والجماعة غشوك قالوا ليك دة ياهو الريس!

أعلن فارس : الحقيقة انا ما قدرت اصافحه لكن سالمته من بعيد شوية!

قهقهه شيخ النور عاليا: يا زول انت مالك كل شوية تبعد، بعد شوية حيبقى تليفون، والتليفون حيبقى مس كول ، وفي النهاية الظاهر انت شفت الزول دة في المنام!

منام ايه؟ حرم الزول دة قاعد في نفس محل حاج سعيد دة وانا قاعد هنا.

نعل ما خبطك الكف الزول قالو خلقه ضايق بي موضوع اوكامبو!

يا زول اعمل حسابك انت ما عارف الاسم دة ممكن يوديك التوج.!

ضحك النور وقال: توج اكتر من النحن فيه دة؟ حرم جهنم تكون رحمة جنب زمن زولك السالمته من بعيد دة! أهو هسع نحن طالعين من موسم بدون حمص، قبل زولك دة يجي الحكم زي اليومين ديل نحن في أمان الله مستورين وزريبتنا مليانة بهائم، ولو مرضت تمشي المستشفى انشاء الله ترقد سنة مافي زول يقول ليك أدفع حاجة، لا في كضب ولا استهبال كل زول في حاله، والدنيا رايقة وأمان ، عسكري واحد قاعد في النقطة وكت عدم الشغلة مشى زرع ليه حواشة. كنا مستورين وكل زول مواصل أرحامه، ويكرم جاره، وعرض الجار ياهو عرضك. جو ناس لا تبديل لشرع الله قرّبو يمرقونا من الملة! بقينا زي يوم القيامة كل زول مهموم بحاله ما عليه لا بي جار لا بي قريب.

بعد فترة صمت، تساءل صلاح الجاز: وما حكيت لينا البوكس دة جبته من وين؟

البوكس دة في الحقيقة أنا صادرته!

صادرته كيف؟ انت سويت ليك جمارك براك ولا ايه!

الجماعة ديل وكت رجعت قلت ليهم انت وعدتوني تسووني مدير او وزير وانا جيت حسب الاتفاق.!

دخلو ومرقو، وفي النهاية جاني واحد قال لي: اسمع انت مش متدرب دفاع شعبي؟

كضبت قلت ليهم ايوة! وعندي كمان شهادة مجاهد في الجنوب!

قاطعه النور: والشهادة دي بيجيبوها من وين؟ اوع تقول لي بتنزل من فو ق ولا حاجة!

أها قالو لي خلاص، بنشغلك فترة منسق مع الشرطة الشعبية عشان يكون عندك خبرة كويسة في الادارة، وبعد داك ممكن تستلم وظيفتك.

قال سليمان: يعني انت هسع بقيت شرطة شعبية؟ ومنسق دي كلام نهائي ولا بعد شوية حتقول نائب منسق وبعد شوية عسكري!

قال صلاح الجاز: انا في الحقيقة ما فاهم يعني في شرطة افرنجي وشرطة شعبي ولا كيف؟ ودة شرطة ولا سوق دة؟!

انتفخ فارس وقال: زي الدفاع الشعبي ما بيساعد الجيش نحن كمان بنساعد الشرطة.!

ضحك النور وقال: سجمهم كلهم. والشرطة الانتو بتساعدوها مهمتها شنو يعني؟

قال فارس: مهمتها حماية المواطن!

ضحك شيخ النور وقال: يا زول دي الا تكون شرطة جديدة غير البنعرفها. الشرطة والامن في حكومتك دي مهمتهم حماية الكيزان من الشعب!

وقال صلاح الجاز: يوم الاحداث الحصلت بعد وفاة جون قرنق، انا كنت ماشي السفارة السعودية جيت ماري جنب مواطنين بيحرقوا في عربات والبوليس واقف يتفرج فوقهم التقول البيحصل دة شيء ما بيخصهم، قرّبت من واحد فيهم وقلت ليه الحاصل شنو انتو ما شايفين الناس دي بتعمل شنو؟ قال لي عندنا تعليمات ما نتدخل!

علّق سليمان: الكيزان قصدوا يعملوا فتنة بين الناس عشان يفصلوا الجنوب!

قال حاج سعيد: ودة الشئ الوحيد النجحوا فيه! سبحان الله ناس ما تنجح الا في الخراب ودمار البلد وبعد دة يقولو ليك لو ما جينا كان البلد راحت!

اها والبوكس صادرته من وين؟

قبضت لي جماعة شايلين مخدرات وصادرت المعروضات ومعاها البوكس!

قال صلاح الجاز: يعني صحيت من نومك لقيت كومك، أنت الظاهر استلمت الشغل وطوالي لقيت الرزق راجيك!

وعلّق سليمان : عرفنا تقبض لكن تصادر كيف انت بقيت قاضي كمان ولا دي العدالة الناجزة ، الزول قبل يسرق كويس تكون حاكمتوه وجلدتوه.

والبوكس دة هسع انت صادرته للحكومة ولا لي نفسك؟

قال فارس: وانا والحكومة شنو؟ ما الحالة واحدة!

أها والمخدرات برضو الحالة واحدة وديتها البيت؟

سلمتها البوليس حيحرقوها!

يا زول متأكد سلمتها ولا تكون بدلتها بورق شجر لغاية ما الدنيا تروق وتبيعها!

قال سليمان الاعرج: ما قلتوا شريعة وخلافة، والناس أخلاقها اتدهورت، واستعمال المخدرات وسط الطلبة والشباب بقى شيء عادي. وكله بسبب ضيق المعيشة ومشاكل الحياة

قال شيخ النور: الطلبة هم اكتر ناس قلبهم على البلد وبيطلعوا المظاهرات عشان كدة بيحاولوا يدمروهم بالمخدرات، زي ما شغلوا الناس الكبار بمشاكل المعيشة والغلاء.

سليمان: سبحان الله اي حكومة في الدنيا شغالة تساعد مواطنيها الا حكومتنا السجم يصحوا من الصباح يمشوا مكاتبهم وشغلهم كله كيف يأدبونا وكيف يخلونا مافي زول يرفع راسه.!

لم يظهر فارس رغم منصبه الرسمي الجديد إهتماما بالشتائم التي إنهالت على الحكومة، يبدو أنه كان يؤمن بحرية التعبير، بصق السعوط من فمه وقال:

أها يا النور، زي ما وعدتكم بقيت مسعول كبير، وين الكرامة؟

قال النور: والله فعلا بقيت مسعول كبير مادام بديت بالمصادرة، وهسع محل شغلك حيكون وين؟ والا تكون مطلوق كدة ساكت لامن تلقى ليك بيت تصادره وتعمله مكتب!؟ ولا البوكس السرقته دة حيكون مكتب مؤقت!

يا زول انا منسق يعني بكون مسئول من الشرطة الشعبية في المنطقة دي كلها!

علّق النور: شغلكم الميت دة، فلان سكران وعلانة ما غاتة شعرها، دايرلو كمان تنسيق!

رد فارس بسرعة: يا حاج ما تخلط بين نظام عام وشرطة شعبية، ولو ان نحن برضه ممكن نشوف الحاجات دي!

قال صلاح الجاز: خلاص بالله وكت تصادر ليك حاجة تاني ما تنسانا من صالح المعروضات، بس ركز لينا على المعروضات الحلال!

ضحك النور وقال: خلاص نوفر العتود لامن يبقى وزير، ونرجاه يمكن المرة الجاية يصادر ليه بهائم ولا أبقار مهربة!

14

يوم أول جمعة بعد تعيينه في الشرطة الشعبية، ظهر فارس في المسيد متأخرا، كان واضحا أنه لم ينم طوال الليل فقضى نهار الجمعة كله نائما.

يا زول وينك ما حضرت الجمعة، بعدين كيف تنوم بالنهار ولا يوم الجمعة مافي شغل لأن الحرامية برضو عندهم عطلة!؟

لم يرد فارس إستلقى بملابسه الرسمية وعيونه الحمراء من سهرة الأمس بجانبهم على حصير السعف.

قال سليمان:اها انشا ءالله صادرت ليك تور عشان نعمل الكرامة!

علّق حاج سعيد: الكرامة احسن وكت يجيب الوزارة!

انا خايف يعملوه وزير بدون حقيبة!

الحقيبة في بس كيف كراعنا تدخل! والله أمس كان عندنا شغل كتير!

قال صلاح الجاز: خير إنشاء الله قبضت ليك حرامي من الحرامية المالين البلد، بعدين مافي اسهل من قبض الحرامي اليومين ديل، اي دقن حايمة تقبضو تلقاه سارق ليه حاجة. يا واطة يا مال سايب!

رد فارس بسرعة:والواطة كمان حيكون شايلها معاه في جيبه يعني! أمس قبضنا ناس متلبسين! صمت قليلا ونظر لهم كأنه يريد رؤية رد فعلهم على كلامه:

قبضنا لينا بت جات السوق لابسة منطلون!

طيب في الحالة دي مفروض تقول قبضنا ناس قالعين، مش متلبسين!

قال حاج النور :الله أكبر والله كدة قربتو تحررو القدس!

مشوار الالف ميل يبدأ بخطوة يا حاج واهو شوية شوية.

قال حاج النور: قبل سنين في واحدة من انتخابات الكيزان المزورة لقيت في عربية مرشح الحكومة عاملين يافطة كبيرة مكتوب فيها:

صوّت لمرشح المؤتمر الوطني من أجل تحرير القدس!

أنا قلت يا ربي الزول دة نازل ضد شارون ولا شنو!

والحكمة القدس دايرين يحرروها بناس ما عندهم هم غير السرقة والعرس!

والله الكيزان ديل لو بس شربوا الخمرة كان ابليس إغترب!

قال سليمان الأعرج:القال ليك ما قعد يسكروا مين، ما هو قدامك منسق الشرطة الشعبية قاعد بجركانته وكت جركانته تخلص يمشى يهاجم بيوت العرقي ويصادر المعروضات يجي هنا يشربها!

ما نحن كمان لازم نطبق الشرع يا اخوان.

والشرع بس قال ليك خلي الحرامية الكبار السرقوا البلد حايمين في حراستك وتمشي تقبض ليك بنت عشان لا بسة منطلون!

دة زي فاضح، وفيه فتنة للشباب. ونحن لازم نحافظ على الاخلاق!

ضحك شيخ النور وقال: الحرامي البيسرق مال المساكين هو اللي بيشجع الناس تسرق او تنحرف، لأن زول اولاده جعانين وعيانين ما بيفكر في قيم واخلاق، انت جوعت الناس وسرقت حقوقهم وعارف ان اخلاقهم حتنتهي لكن

انت قاصد كدة! لأن الناس دي لو اتمسّكت باخلاقها وقيمها ما بتخلي ناقص زيك يحكمنا أكتر من ربع قرن!

علّق حاج سعيد: الشباب ديل في الاول علّمهم، وعالجهم وساعدهم يلقوا شغل، بعدين شوف ليهم موضوع الفتنة دة!

هسع البت دي بتحاكمها بشنو يعني، عملت ايه؟

البت دي بنحاكمها بقانون النظام العام الزي الفاضح! وكمان قبضنا شوية أولاد كانوا واقفين معاها.

وديل تهمتهم شنو؟

الشروع في الزنا!

الشرع منو؟ في زول شفتوه ملص سرواله مثلا ومشى عليها؟

كل الناس الشافوها متبرجة، وعاينوا في جسمها يعتبروا زنوا بعيونهم!

قال سليمان الأعرج: بعيونك تقول لي تعال وتعال!

ضحك شيخ النور وقال: الغنية دي ذاتها مفروض تمنعوها لأن فيها برضو شروع في الزنا!

كيف؟

ما كلام واضح بعيونك تقول لي تعال، دة معناه شنو، بقلبيك تقول لي لا ما في مجال، يعني الزول دة ضمنا بيعترف ان البت ما عاوزة تتزوجه، لكن بعد دة بتناديه بعيونها، وكت القلب ياباك والعيون تناديك، معناه عندها ظروف، ودة حسب قانونكم العملتوه براكم: شروع في الزنا!

ضحك فارس وقال: الغنا دة نبعد منه ، لأن بيدخلنا في مشاكل نحن هسع ما فاضين ليها.

قال سليمان الاعرج: بالعكس الفنانين الما مشوا معاكم في المؤتمر الوطني واخدوا رتب في الأمن، بتطاردوهم كل يوم، وتنطوا عليهم في البيوت، وشايلين معاكم العرقي تقولو لقيناه عنده، تاني يوم تجيبوهم تجلدوهم قدام الناس عشان تهزوا صورتهم، لكن الحكمة شعبيتهم تزيد لأن الناس فاهمة اساليبكم انتم بس القايلين نفسكم شطار، بتخافوا بالذات من الشباب لأن فشلتم تقدموا ليهم حاجة وطاردتوهم في رزقهم وحتى في ارواحهم رسلتوهم يموتوا نيابة عنكم في الجنوب عشان انتوا تقعدوا في الحكم.

واصل فارس كلامه كأن أحدا لم يتكلم:الاسبوع الفات مشينا حفلة مع ناس النظام العام، قالو الفنان سكران ننزله نجلده، قلت ليهم أصبروا شوية، مشيت بشّرت في الفنان شميت ريحته، عرقي نضيف زي دة عمري ما شربته!

صادرت الفنان و المعروضات برضه؟

لأ قلت للفنان ألحقني بكاس من العرقي النضيف دة يا تنزل تتجلد، في داخل الاغنية نادى واحد واقف وراه، جاب لي كاس، شربته وقلت ليه غني ساي إنت في حماية الحكومة. بس مرة مرة غني لينا للحكومة! قال لي ما عندك مشكلة داير غنا شنان ولا قيقم؟. قلت ليه في اضانه حلفتك كان توريني العرقي دة من وين، يغني ويوصّف لي في محل العرقي في داخل الأغنية وأنا واقف أبشّر! وكت الاغنية خلصت لميت العساكر ووقفنا بي ورا، جابوا لينا العشا وأكرمونا! ولأن انا المنسّق عاملوني معاملة خاصة اتعشيت مع

الفنانين وسكرت مع العريس! والحقيقة العشاء كان تمام والعرقي نضيف، أخدت لي غمدة جنب العريس، لغاية ما سمعت كركبة النسوان، ساعة الدخلة. مرقت لميت العساكر ورجعنا!

وأها انشاء الله عرفت محل العرقي وين؟

أيوة بكرة يمكن نمشي نعمل عليهم كشة! لكن بتوصى بيهم، بنصادر النص ونخلي الباقي، لأن الزي ديل لو حالهم وقف، نحن كمان حالنا يقيف ونرجع عرقي العيش!

ضحك سليمان وقال: والله خلي بالك شغلتك دي شغلة سمحة، تسكر وتتعشى وتبتهج مجان وكمان نايم في أوضة العريس.!

والله الصيف موسم سمح، الاعراس كتيرة خاصة المغتربين رجعوا اليومين ديل.

اها وتاني عملت شنو؟

قبضنا لينا زول في السوق لابس نقاب وقاعد وسط النسوان!

وعرفتوه راجل كيف؟

واحد من ناس الشرطة شك فيه وجاني مشينا سقناه ودبناه دكان فاضي في السوق ودخلنا معاه مرة كشفت عليه!

وطلع شنو؟

طلع مرة! بس هي بتشبه الرجال في شكل جسمها وعندها شنب خفيف!

بالله يا اخوان في مسخرة في الدنيا اكتر من كدة وهسع المرة دي دفعتوا ليها تعويض ولا عملتوا شنو ؟

ندفع ليها تعويض ليه؟

على الاحراج السببتوه ليها والفضيحة قدام الناس!

فضيحة في شنو نحن ما قبضناها في شروع ولا حاجة!

قال حاج سعيد بعد فترة صمت. يا اخوان الناس دي جنت والا إيه. يا أخوانا الحكومة البنعرفها شغلها حماية الناس وراحتهم، هل معقول البيحصل في البلد دي؟ ناس تذلنا ليل نهار بحقنا كمان. قلعوا حقوق الناس، لا تعليم لا علاج، باعوا البلد كلها وكبوا القروش في جيوبهم، بترول راح وين ما معروف وبعد دة يذلوا فوقنا ليل ونهار. ودة عاملنو كلب يحرسهم، عينه في الحرامي وينبح فوق المساكين!

خيم صمت طويل،

اها يا اخوانا الكرامة لسة؟

كرامة ايه انت زول صعلوك ساكت، حايم تفتش في هدوم النسوان دة مرة ودة راجل،

عموما انا كنت عارف انتوا ما حتبقوا قدر كلامكم، عشان كدة اتصرفت.

عملت شنو؟

حسين الجزار لقيته يبيع برة التسعيرة، أديته تحذير قلت ليه المرة دي مافي مشكلة لكن المرة الجاية الحراسة. أداني اتنين كيلو نضيف هدية، بعد السوق مشينا ورا زول بتاع عرقي بالدس لغاية ما لقيناه دخل ليه غابة مسكيت، إنتظرناه لغاية دفن العرقي ومرق، مشينا بوراه لقيناه جاري وراه غصن شوك عشان يخفي الأثر، لكن على مين. فتشنا المحل لقيناه قعد في ركن إتبول، حفرنا مكان البول ومرقنا الجركان الكبير، وصادرنا المعروضات!

15

في المسيد كان سليمان الاعرج جالسا فوق برش الصلاة يتوضأ من إبريق الماء البلاستيك، أبريق الماء فقد لونه بسبب الزمن ولم تبق سوى خيوط من اللون الأحمر تغطيها الاوساخ ، وتشققت حوافه، وأصبح يسرّب من الماء أكثر مما يحتفظ به. جواره كان فارس يرقد مضطجعا بملابسه الرسمية وبجانبه بندقية.

في تلك اللحظة دخل شيخ النور إلى المسيد، لمح الزي الرسمي النائم فوق برش الصلاة وقال: ما شاء الله الليلة حنصلي في حراسة الحكومة! فارس كان يغطي وجهه بيده، لم يتحرك من مكانه أو ينظر إلى حاج النور.

ما تقوم يا ولد تستعد للصلاة والا خلاص عشان بقيت مؤتمر وطنى عفوك من الصلاة!

قال سليمان الأعرج: ولا يمكن عشان عنده بندقية بقى ما خايف ولا حتى من الله!

قال فارس دون أن يتحرك: أنا عندي رخصة!

ضحك شيخ النور وقال: رخصة رمضان عرفناها، غشيتنا قلت عندك الكلى، وانت زي الحصان، والا بعد بقيت شرطة شعبية عملت ليك رخصة كبيرة، شاملة العبادات كلها!

قال فارس: عندي ملاريا!

قال حاج سعيد الذي وصل في تلك اللحظة: ملاريا كيفن ما تجيك ، كل يوم سهران ليك في بلد، وحايم مطلوق وسط الحلال، المرة دي كاشفة شعرها والزول دة سكران والزول دة شرع في الزنا.!

نعمل شنو ما نحن لازم نسهر عشان المواطن ينوم في أمان!!

ضحك شيخ النور وقال: اذا الرباطي الحرامي صاحي ، وحايم بسلاح كمان عينك يا تاجر، حاميها حراميها. الأمان يجي من وين؟! وكت تكون انت ولا واحد من كيزانك جنبنا نحن صاحين بالنهار بنكون خايفين، خليك من الليل!

أعلن فارس بفخر سلطوي: الاسبوع الفات أولاد المدرسة الثانوية طلعوا مظاهرة، لو ما وقفنا ليهم دقيناهم دق الرخصة، كان دخلوا الحلة حرقوا ممتلكات الشعب!

ضحكوا جميعا لحكاية ممتلكات الشعب، وقال شيخ النور: وينها ممتلكات الشعب؟ شوية القصب الناشف ولا بيوت الجالوص المكسرة دي ولا مخازن العيش الفاضية الا من العنكبوت؟ والا الزرايب الما فيها غير نعجة عرجاء، يا حمار دراوي ضهره كله دبر، ممتلكات الشعب زمان جماعتك دقوا فيها الجرس. يا ريت لو كان عندنا ممتلكات يحرقوها!

قال سليمان الأعرج: بعدين قالو ممتلكات الشعب دي قاصدين بيها ممتلكات الكيزان، هم العندهم ممتلكات، قروش البترول سووها عمارات وطرمبات بنزين وشركات، ناس قريعتي راحت طلعوا من البترول بقد البرميل اقصد القفة!

قال حاج النور: حتى شوية الطرمبات القالو الناس حرقتها ، كضابين، فضوها من البنزين وحرقوها براهم عشان يلقوا سبب يضربوا الناس المساكين المرقت بالجوع والهملة، يضربوهم بالرصاص.

قال حاج سعيد: الناس بقت واعية وعرفت الكيزان ناس كضابين وحرامية، والدين دة رافعنه ساكت تجارة، عشان كدة تاني ما في زول بيصدقكم.

قال فارس: الحقيقة الاحتجاجات كانت قوية المرة دي، أنا فكرت استقيل من الحكومة! لكن قلت كدة نصبر شوية يمكن القصة دي تعدي ساكت!

ضحك شيخ النور وقال: إنت بقيت زي الأسياد، كراع جوة وكراع برة! إستقالتك جاهزة مكتوبة، ترميها في آخر دقيقة قبل البيان الأول!

علّق سليمان: (الأسياد) دايرين الأولاد يموتوا بعدين يتحركوا عشان يركبوا الموجة الجديدة! ولو الشباب فشلوا يكونوا هم ما خسروا حاجة! لو الشباب نجحوا يجوا هم حكّام ولو الشباب فشلوا، البركة في أولادهم المساعدين!

قال صلاح الجاز: والله مساعدين السرور، مساكين نحن عمرنا كله شغالين مساعدين، ما لقينا شيء بلا التعب، أرفع الصاجة، أحفر تحت اللستك، غيّر زيت اللوري. يا ربي هسع مساعدين الريس ديل شغلهم شنو؟

ضحك شيخ النور وقال: مافي فرق كتير، الريس برضه زي اللوري القديم، المكنة خفيفة، كلما يوحل، المساعدين لو شداد يمرقوا، بس الشغل في القصر نضيف شوية وما فيه تغيير زيت وكدة! الريس ذاته مسكين مشغول بموضوع السفر، وكت غلبه يمشي أي محل في الدنيا، مشى الحج! أهو قال منها حجة وزوغة، لو لقى ليه عقد عمل ماله ومال تعب الحكم، كلما يفصل ليه

بلد، يقول يرتاح شوية، البلد الجنبها تقوم! فتر مسكين، حتى رقيصه قلّ الزمن دة!

قال حاج سعيد: يا ربي تاني يرقص بعد الحج؟

علّق شيخ النور: ما أظن هو مشى يتوب من الرقيص! انا مستغرب بعد الشباب الكتلوهم ديل كلهم، كيف زول يكون عنده نفس يمشي الحج زي الما حصل أي شئ!

واصل فارس كلامه كأنه لم يستمع لكلام شيخ النور وحاج سعيد:

الحقيقة أنا كتبت إستقالة، لكن عملت بنفس سياسة السيد، وكت لقيت الشارع هدأ شوية قطّعتها!!

ضحك سليمان وقال: كان تخليها الظروف ما معروفة يمكن تحتاج ليها تاني!

قال شيخ النور بدون إهتمام: وكتبت شنو في الاستقالة، قلت ليهم سياستكم فاشلة والبلد خربتوها وسرقتوها؟

فكّر فارس قليلا، مد يده بإتجاه سليمان الأعرج الذي فهم أنه يريد علبة (السعوط) لكنه إدعى عدم الفهم، قال فارس وهو ينظر بإتجاه شيخ النور وكأنه يرد عليه : أنا فكرت أعمل إنقلاب، بدل الشرطة الشعبية دي لو كان ودوني دفاع شعبي، كان عملت إنقلاب أبيض!

قال حاج سعيد: أبيض ولا أحمر، المهم كنت داير تقول شنو للناس؟ أوع تقول جايي أنقذكم!

لا..لا، إنقاذ شنو، الناس عرفت خلاص، انا حأقول: من أجل الديمقراطية والثورة والتعددية والوحدة الوطنية!

يا زول دة كلام كبير، إنت ما بتقدر عليه!

بعدين بقول في البيان الاول ان البلد إتقسمت وإتدمرت، والناس إتفتتت ورقدت سلطة في بعضها، والجوع دخل البلد رغم ان بلدنا بلد غني، لكن بسبب السرقة والفساد والمحسوبية. اما السيد الريس فقد اضاع وقته ووقت امته في الرقيص والكلام وضرب الناس المساكين بالرصاص!

قال سليمان الأعرج: تراك حافظ بيان جماعتك الاول.!

رد فارس بسرعة: البيان دة ذاته ينفع للزول الداير يقلبهم اكتر مما كان يناسب انقلابهم!

ضحك شيخ النور وقال: شيخ حسين الله يرحمه كان دايما يشتم الكيزان، وكلما يلقى مداحين في المولد ولا الحولية يقول ما دام الكيزان حكمونا ديل كمان قريب حيحكمونا. قلنا ليه يا شيخ حسين بالك الكيزان القالو تاني ما يسلموها الا عيسى ديل حيتفكوا من الرقبة. كان راجل حكيم، قال أنا ما بحضر وكت يمشوا لكن صدقوني حيجي عليهم يوم، حيخلو مراكيبهم ويجروا!

كأن فارس خاف لذكر نبوءة الشيخ حسين ، صمت قليلا ثم أعلن: يا اخوانا لو حصل شيء، انتو عارفني زولكم، بعدين انا الوحيد المشيت وقفت ضد الناس ديل في الانتخابات، وكنت داير انزل ضدهم، وعملت برنامج التأصيل الأصلي، مش التأصيل المضروب بتاعهم، وحتى وكت غشوني وقالو

حنعملك مدير ولا وزير، مرقت في النهاية بمنسق شرطة شعبية ودي ذاتها والله يا الاخوان ما قاعد اشتغل فيها ضد الناس المساكين.

قال حاج سعيد: انت مشكلتك لا ضد مسكين لا ضد حرامي!

لو داير تقدم السبت عشان بكرة بكرة وكت الشارع دة يطلع تاني مافي شيء بيقدر يوقفه، الشباب قتلوهم، اهلهم اعتبروهم شهداء ماتوا فداء للوطن. الناس تاني ما بتخاف، والتمن الغالي حيدفعوه الكيزان الكتلوا الناس ودمروا البلد ونهبوها.

لو داير الناس تنسى انك مشيت مع الجماعة ديل واتلوثت معاهم تستقيل هسع وتكشف كل المصائب الشفتها ، !

فكر فارس قليلا، ثم ضحك ضحكة خافتة وقال:الاستقالة دي خلوها شوية يا اخوان، نحن لسة ما شفنا حاجة، والله بس كراعنا حارة وكت قربنا على الوزارة الشغلة اتقلبت، الناس دي صابرة على عمايل الكيزان ديل اكتر من عشرين سنة. الكيزان ياهم الكيزان، من يوم جوا سرقة وكتل، وكت هسع خلاص قرّبت تستوي والوزارة بقت خلاص شايفها بعيني، الناس صحوا من النوم، سحر الكيزان العاملنو للناس فجأة راح، والناس يادوب شافت انها مظلومة!

قال حاج النور: انت ما فوقك فايدة، خليك مع ناسك ديل. ياهم شبهك.

حضر في تلك اللحظة عبدالرحيم و محمد الحسن إمام المسجد، أقام سليمان الأعرج الصلاة. حين وقفوا في صف الصلاة، نظر فارس حواليه وتذكر قصة السبت والأحد، وقف بدون وضوء بجانب حاج سعيد في صف الصلاة الثاني، لكن حاج سعيد إبتعد منه.

قال فارس: ما تقرّب يا حاج وتضم الصف.

قال حاج سعيد: أقرّب منك إنت؟ ليه؟

عشان الشيطان ما يدخل بيناتنا!

شيطان! قال حاج سعيد مستغربا وفي شيطان غيرك وغير جماعتك الكيزان؟

إبتعد حاج سعيد مسافة اكبر تاركا فارس وحيدا وقال قبل أن يكبّر للصلاة:

شيطان وشايل بندقية كمان.!

16

كان حاج النور جالسا متكئا على حائط المسيد القصير، كان يبدو في ضوء المغيب وهو متكئ على الحائط الطيني القديم مثل نخلة على الجدول، جفّ عودها وجريدها بسبب الزمن ورياح السموم. لكنها بفضل جذورها الضاربة في عمق الأرض لا تزال واقفة تقاوم الاعاصير والزمن. في مواجهته يجلس حاج سعيد فيما وقف صلاح الجاز وأستاذ حسين المدرس في المدرسة الثانوية يتحدثان في الخارج. كان استاذ حسين يبدو متعجلا لكن صلاح الجاز أقنعه ليصلي المغرب ويبقى معهم لبعض الوقت.

بدأ موسم الزراعة الشتوي، ورغم أن الجو كان لا يزال حارا، لكن بعض المزارعين جازفوا بالبدء في الزراعة رغم الخوف من آثار سلبية لتأخر البرد

قال استاذ حسين: ناس اللجنة الشعبية قالو الجاز حيجي خلال أيام، يا رب في ناس حتزرع السنة دي، الشباب كلهم في الدهب!

رد حاج سعيد: مجبورين نحن العجائز نزرع، لو بنقدر نمشي الدهب ما كان فضل في الحلة دي غير الكيزان والكلاب!!

قال شيخ النور: موسم جديد بنفس المشاكل القديمة. لا جاز لا تمويل، وكمان مافي برد. الاولاد الشباب طلعوا مظاهرات قعدنا نتفرج فيهم والكيزان الناقصين يضربوهم بالرصاص. أولاد صغار يضربوهم بالرصاص في صدورهم عشان يكتلوهم، شباب ياهم راسمال البلد دي بعد الكيزان دمروا كل

شيء، قسّموا البلد وخربوا المشاريع الكبيرة الكانت البلد معتمدة عليها، ونحن ساكتين تقول الكتلوهم ديل ما اولادنا ولا مستقبلنا ومستقبل بلدنا. الحصل علينا شنو يا اخوان؟ و البيحلنا من الناس دي شنو؟

قال حاج سعيد: يحلنا الحل بلة!

أطرق شيخ النور بحزن وقال: والله بلة ذاته لو جة في زمن الكيزان دة ما كان لقى البيحلو !

ضحك استاذ حسين من حكاية بلة وقال: هم يفرحوا وكت يلقوا الناس يئست. هم عندهم ميزانية عشان يخلو الناس تيأس من حدوث تغيير. المظاهرات دي ضربوها ضرب الخوف، الزول الخايف وكت يضربك تاني ما تقدر تقوم، لكن في النهاية بيكشف نفسه انه ضعيف و خايف، ونهايته مسألة وقت.!

علّق شيخ النور: والفايدة شنو اذا كنا نحن ذاتنا أضعف من الضعيف دة؟ اكتر من خمس وعشرين سنة يضرب فوقنا زول ناقص، حتى لو هو بقى هسع جنازة، نحن برضو ميتين وما قادرين نرفع رقبتنا عشان ندفن الجنازة الاسمها الانقاذ دي!

دخل سليمان الأعرج في تلك اللحظة، قبل أن يجلس جيدا على الأرض قال: السيدين كان فرصتهم يكفروا شوية من اخطاءهم ويقيفوا مع الشارع لكن كالعادة فوتوا الفرصة، لأن الناس ديل شايفين نفسهم سلطة في الحكم ولا برة ما فارق معاهم. لكن هم ما عارفين حاجة الناس وعت. والاجيال الجديدة دي ما بتعرف سيدي. دة جيل انترنت ، البديل بيطلع منه من معاناة الشارع، من الناس الشايفة اهلها بتعاني. الطائفية دي خلاص زمنها راح لو عندهم فهم

للدنيا الاتغيرت، ودايرين يكسبو شوية زمن، مفروض يقدمو ناس كويسين ، قصة القداسة دي تاني ما بتأكل عيش.!

وافقه استاذ حسين: كلامك صحيح البديل حيجي من رحم حواء السودانية، النظام واحد من أهم اساليبه لتيئيس الناس من التغيير، الكلام عن البديل، يقولو اذا نحن مشينا حيجوكم ناس الأحزاب بنفس ممارساتهم القديمة، وديل ناس فشلوا وأدمنوا الفشل اخير ليكم نحن. لكن الشباب الجديد الطلع في سبتمبر، شباب قلبه على بلده وعلى اهله، شباب واعي ومتابع الحاصل في الدنيا كلها وصعب أي زول يخدعه. وديل هم البديل. وكت قامت الثورات في بلاد كثيرة الناس ما فكرت في البديل، لأنها وعت وعرفت ان البديل نظام وقانون مش أشخاص. لو في قانون بيساوي الناس ويحاسب البيغلط ما مهم الصندوق بعداك يجيب منو. بعدين سنة الحياة ان الوجوه القديمة دي ما حتقدر تتماشى مع زمن جديد بأفكار جديدة. وفي النهاية البديل لا يمكن الناس تخاف منه لأن الناس عرفت أن النظام دة يستحيل يكون في أسوأ منه في الدنيا كلها .

قال حاج النور: الحزب الاتحادي دة زمان كان عنده وجود في المنطقة دي، لكن وسط الأجيال الجديدة بقى ما عنده وجود عشان كدة في اخر انتخابات قبل انقلاب الانقاذ جوا الكيزان غشوا الناس وقالو نحن ناس دين وعاوزين نطبق الشريعة. الناس مساكين بيفتكروا اي زول يتكلم في الدين دة معناه زول نضيف ما حيسرق حق الناس او يظلمهم، الظلم الظلمونا الكيزان والسرقة السرقوها مافي زول في الدنيا سبقهم عليها. لكن حتى لو قلنا الكيزان

انكشفوا وانتهوا، الاتحادي تاني ما حيرجع. الا اذا شباب الحزب مشوا ورا على محمود حسنين على الاقل هو زول نضيف عنده مبدأ وما اتنازل ابدا. اما ناس حزب الأمة اخير الإمام دة يتفرغ للامامة ويدي الاجيال الجديدة فرصة، اولاده كمان اتلوثوا مع الكيزان، البنات أحسن على الاقل بناته ما اتنازلن ووقفن مواقف قوية، حتى واحدة كسروا ليها الكيزان يدها.

قال استاذ حسين: الطائفية ما عندها مستقبل، الاجيال الجديدة منفتحة على العالم بفضل الانترنت، الناس في البلدان الحكم الديمقراطي فيها ثابت وقديم، معظمها ما عندها ولاء لحزب، بتشوف برنامج الحزب البيحقق مصالحها وطموحاتها وتصوت ليه، يعني ممكن الزول يصوت ليك المرة دي وعادي المرة الجاية يصوت لي حزب تاني، والناخب بيحاسبك بالصندوق، لو ما نفذت البرنامج النزلت بيه ما بيديك صوته تاني .

قال حاج سعيد: تاني ناس عاش ابو هاشم ولا نصادق الا الصادق ديل ما حياكلوا عيش يعني!

بعد الصلاة إستأذن استاذ حسين خارجا، رغم محاولات حاج النور وحاج سعيد معه ليبقى للعشاء.

نظر حاج النور ناحية سليمان الاعرج وقال: صاحبك وين يومين ما ظاهر؟ ولا يكون مشى الخرطوم تاني يجتمع بالريس!

ضحك صلاح الجاز وقال: يكون صادر ليه برميل عرقي لو ما خلص ما حيظهر تاني!

قال حاج سعيد: أريت كان يجيب ناس الشرطة الشعبية القاعدين ساكت ديل يساعدني نبني حائط البيت الوقع بسبب المطر!

علّق سليمان: قالو الوالي بتاع الخرطوم منع الناس تبني الجالوص!

الوالي إلهي ما يلقى الوالي، نحن بلحيل بنحب الجالوص، خلي يدينا الاسمنت نبني بيه، شركاتهم قالو محتكرة تجارة الاسمنت يكون لقوها فرصة يبيعوا للناس بالقوة!

قال شيخ النور: جراد وغلاء وجوع، وكمان يضربوا اولادنا بالرصاص في صدورهم ورؤوسهم.!

قال سليمان الاعرج: أمس شفت لي حلم عجيب، قال ناس اللجنة الشعبية مجتمعين في حوش المدرسة عشان يشوفو طريقة يحاربوا الجراد، والجراد واقف فوق سور المدرسة منتظر نتيجة الاجتماع! والاجتماع طوّل، الجماعة يتناقشوا في الموضوع يمكن تلاتة يوم ولا اسبوع ما عارف! والجراد منتظر، واحد يقول نحرق البلد عشان نحرق الجراد! وواحد يقول نسمم عيش ونكبه للجراد، نط واحد قال ليهم لكن الحمير والبهائم يمكن تاكل العيش المسموم! رئيس اللجنة قال ليه ما مشكلة نكلم اي زول يربط حماره ويلم بهائمه! واحد قال طيب يا اخوان يمكن زول جعان ياكل من العيش! رئيس اللجنة قال ليه ما مشكلة يموت تلت ناس البلد عشان الباقين يعيشوا حياة كويسة وآمنة! واحد قال نجيب الفقرا يقروا للجراد! نط واحد قال ليه فقرا الزمن دة والله جرادة في الكف ما يطيروها! نط واحد قال نجيب الجن، الجن المسلم، أصلا زمان في زول اقترح قال عشان نحصّل العالم الإتقدم علينا الا نجيب الجن! يا

زول وكت الكلام جرّ وأبى يخلص، الجراد زهج، وفجأة إنطلق على ناس اللجنة الشعبية ديل زي الفكوه بمدفع، وأبات دقون ديل جروا جري الوحوش! لامن فارقوا البلد بإتجاه الصحراء، أها بعد ما الجراد سكاهم وجروا لغاية مرقوا برة الحلة، جينا نحن شلة من ناس البلد في المحل عشان نسألهم عملو شنو في موضوع الجراد، ما لقينا شيء غير جبل من المراكيب خلوها الجماعة وكت الجراد سكاهم!

ضحك حاج سعيد وقال: اذا كدة أبشروا نبوءة المرحوم حاج حسين ان الكيزان حيجي عليهم يوم يخلوا مراكيبهم ويجروا، وكتها جة خلاص!

17

كنت أجلس في المسيد مع حاج النور بعد صلاة العصر، كان حاج النور يبدو حزينا بصورة ما، إحترمت صمته الحزين، شعرت كأنني مسئول بصورة ما عن شعوره بالحزن!، خفت أن حاولت أن أخفف عنه أن أكشف مافي دواخلي من شعور بالذنب. أغمضت عيني وحاولت أن أبدو وكأنني إستغرقت في النوم، كل ما أفعله طوال النهار كان إنتظار حلول الليل. أملا في ظهور نجمي الأحمر! أشعر كأن حياتي نفسها هي إنعكاس لإختبائي طوال الوقت في الصمت، كأن وجود مسافة بيني وبين الحياة اليومية كان هو الضمانة الوحيدة لظهور النجم المذنّب الأحمر! كأن الاستعداد للحظة عودة الزمان، تحتّم الاعتياد على زمان مختلف والابتعاد عن زمان الحياة اليومية العادية.

فجأة وصل فارس، كان مختفيا منذ أيام وسمعنا أنه سافر بعد أن طرد من الشرطة الشعبية بسبب محاولته كشف سرقة اثار تورط فيها أحد المسئولين الكبار. كان منظره قد تغير قليلا، يحمل في يده مسبحة وتزين وجهه(زبيبة) صلاة حين رآنا ابتسم فإختفى الوقار والورع المزيف في وجهه، رغم ان زبيبة الصلاة ظلت في مكانها.

حمدت الله لأن شيخ النور ابتسم حين رآه وقال: مبروك زبيبة الصلاة، نعل ما كلفتك كتير؟

ضحك فارس وقال ببساطة: خمسة جنيه في سوق ليبيا. في نوع اغلى شوية لكن انا قلت دي كفاية، حتى لو جابت لينا وظيفة عسكري نمشي بيها حالنا لغاية ربك يفرجها.

قال شيخ النور: وليه ما مشيت قابلت الريس واشتكيت ليه ناس الشرطة الشعبية عشان رفدوك؟

قال فارس الريس مشغول، قالو عنده وثبة مهمة الايام الجاية دي، لكن مشيت قابلت النائب.

ياتو نائب فيهم، الاول ولا الثاني ولا التالت؟ ما كل اسبوعين بقى في نايب جديد؟ كل وثبة بنوابها!

قال فارس بسرعة: لأ أنا قابلت النائب الأول!

خرجت قليلا حتى لا يلفت صمتي الأنظار، أو ربما خوفا من تعفن صورتي في الصمت، قلت: يمكن قابلت واحد من المساعدين؟

نظر لي شذرا كأنه يراني للمرة الأولى في حياته، وقال: المساعد قاعد برة، لو داير تقابله قالو الا تسافر لندن. !

أها عملت شنو مع النائب الأول؟

اشتكيت ليه ووريته الحاصل من الجماعة هنا، شرحت ليه ان الناس كرهت النظام بسبب مشاكل ناس المؤتمر الوطني، وسرقاتهم وشغل اللف والدوران بتاعهم. قال لي خلاص اكتب عريضة وسلمها لمدير المكتب وأنا حأتصرّف.

اها واتصرّف!

الحقيقة قبل ما يتصرّف، صرفوه هو ذاته! اترفد! الظاهر ما نحن برانا البيرفدوهم، ناس قريعتي راحت كتار!

ضحك شيخ النور وقال: كراعك خدرة عليه!

رد فارس: كلامك صحي، الحقيقة اي زول فكرت قلت امشي اشتكي ليه إني اترفدت ظلم عشان بحارب الفساد والسرقة، رفدوه قبال ما أصله! الكانوا محظوظين شوية استلموا العريضة وبي وراها جواب الرفد! عريضتي مافي زول قراها، الناس كلها انشغلت بالفراش والمعزين وكدة!

وصل سليمان الاعرج وحاج سعيد في تلك اللحظة.

جلسا بعد ان صافحا فارس. قال حاج النور: باركتو ليه زبيبة الصلاة!

ضحك حاج سعيد وقال: والله ما شاءالله الزول بقى شيخ كبير، ناقصه بس يصلي ويصوم ويبطل السكر!

وقال سليمان: والسرقة والهمبتة!

اعترض حاج النور: السرقة بطلها وبقى يحاربها كمان. فارس سافر الخرطوم قدم عريضة ضد الحرامية هنا، لكن انت ليه تسافر الخرطوم، مش عندنا حكم ولائي، يعني مفروض تشتكيهم هنا في الولاية ولا السرقة بقت إتحادية!.!

قال سليمان: القط وقت ما يلقى اللبن يقول مر، يكون ما أخد حقه بعد آخر سرقة!

ضحك فارس وقال: الحقيقة الزول العيّني في الشرطة الشعبية اتفق معاي اقسم معاه أي رشوة أو همبتة! أول ايام كنت بأدفع ليه، لكن الظروف بقت صعبة، مرة لقيت لي قريشات ، قسمت ليه حقه ومشيت اديه. فكرت، قلت

الزول دة داقي في القروش دي حجر دغش؟ مالي وماله؟. الظاهر شعر أني اكلت حقه، عشان كدة وكت ظهرت مشكلة الآثارات طوالي قام رفدني!

ضحك حاج سعيد وقال: يعني شغلك داك كان مقاولة، شغال بنسبة من الهمبتة مع الحرامية الكبار.!

قال شيخ النور بحزن: نهبوا البلد وما خلوا حاجة لمسكين او يتيم، ما سمعتوا قصة الولد المشى انتحر عشان ما قدر يشتري الدوا لأمه المريضة؟

قال حاج سعيد: لا حول ولا قوة الا بالله!

قال شيخ النور: الحياة نفسها بقى ما عندها طعم. الناس كلها بقت عاجزة ما بيدها شيء تعمله، الدنيا اتغيرت، الضمائر ماتت، لو حصل الكلام دة قبل تلاتين سنة كان الدنيا اتقلبت، هسع الناس تسمع خبر زي دة، تقيف شوية، ويمكن البعض يشعروا بالحزن على الحال الوصلنا ليه، لكن بعد خمسة دقائق كل شيء يتنسي والناس ترجع لدوامة مطاردة أكل العيش ورزق العيال. الناس ديل كتلوا فوقنا الاحساس بالظلم المالي الدنيا حوالينا، الظلم من شدة ما قريب مننا بقينا ما شايفنه! أحساسنا إنتهى، وين في مقهور يقدر يحس بمقهور زيه!

ساد الصمت، حتى قال سليمان الاعرج: القلوب ماتت، الجماعة مشغولين بسرقتهم ومصايبهم ولا حتى واحد بيشعر بالذنب من المصائب الدخلوا فيها الشعب المسكين دة. أكلوا حقوقه وصادروا حريته. الظلم عينك يا تاجر وما في زول يقدر يقول كلمة.

قلت: كلام شيخ النور صحيح، الظلم من شدة قريب بقينا ما قادرين نشوفه، الدنيا بقت زي يوم القيامة، كل زول في مصيبته، هسع في اللحظة النحن بنتكلم فيها دي، الانتينوف بتضرب في الاولاد والنساء في الجبال، الموت بقى خبر عادي، الخبر الغير عادي ان الاحوال تكون مستقرة ومافي موت! قبل أيام شفت في جريدة خبر صغير في صفحة داخلية أن الكلاب الضالة نهشت طفل رضيع تخلصت منه امه في الشارع! وإحتمال في ناس مارين يكونوا سمعوا صراخ الطفل قبل الكلاب ما تنهشوا!

قال شيخ سعيد: الجماعة ما فاضين من العراك مع بعضهم على الكراسي. البيصل الكرسي قالوا يدق الصيوان عشان الناس تجي تبارك واليطردوه من الكرسي برضو يدق الصيوان عشان الناس تجي تعزي، وفي النص سرقة ورقيص، والناس ليها رب اسمه الكريم، الظلم خلاص فات الحدود.

أردت تغيير حالة الحزن والشعور بالعجز التي تخيم على الجميع وقلت متوجها إلى فارس: وطردوك من الشرطة الشعبية ليه

وقال سليمان الاعرج بسرعة: وطردوك قبل الزبيبة ولا بعدها؟

تجاهل فارس سؤال الزبيبة وقال: كنت في مشوار لبحري وسمعت الناس تقول ان في آثار اتسرقت من حتة مقفولة بتفتش فيها بعثة خواجات عن الاثار بس هم بيشتغلوا في الشتاء. والسرقة حصلت بعد سفرهم، مشيت قلت اجمع معلومات. في زول أداني معلومة بأن في زول معين كان بيجي كتير يخش الحتة، مشيت قبضته وحققت معاه. أنا في الحقيقة كنت قايل القصة يكون

فيها مصلحة نقسم معاهم ولا حاجة. أها الزول اعترف وقال لي في مسئول كبير ورا القصة دي، مشيت عملت ليه أمر قبض. وسقت معاي عساكر اتنين مشينا نقبضه. لقينا نفسنا في الحراسة ! واستلموا مننا سلاح الحكومة ورفدونا!

ضحك سليمان الاعرج وقال: ما شاء الله دولة القانون تمام! وانت لو ما شليق ما عارف ناسك كبار فوق القانون، عامل فيها فالح يعني داير تطبق القانون عليهم!

ضحك فارس وقال: والله انا دقست في الحقيقة لكن في الاول كنت داير حقي وأخلع، وكت الموضوع كبر قلت يمكن لو وصلته اخره ألقى لي ترقية ، ابقى فريق ولا مشير ولا حاجة!

ضحك حاج سعيد وقال: فريق شرطة شعبية! دي زي نميري وقت قال لناس المطافئ دايرين رتبة فريق ليه؟ دايرين تطفو جهنم؟ انت داير تبقى فريق شرطة شعبية ليه؟ داير تصادر البحر تقول ريحته عرقي عرقي عشان السكارى بالوا فيه؟!

في تلك اللحظة ارتفع صوت اذان المغرب. كان شيخ النور لا يزال غارقا في حزنه. قال حاج سعيد. الليلة الطاهر مافي، مين يصلي بينا المغرب؟

تقدم فارس وكأنه سيصلي بهم، إنتهره حاج سعيد: انت صدقت يا ولد عشان زبيبة صلاة تمنها خمسة جنيه ، انك بقيت بتاع دين؟ دي تمشي تبقى بيها عسكري ولا كوز حرامي!

قال سليمان: يا اخوان الزول دة تعب في الزبيبة دي وخسر فيها، أدوه فرصة مرة واحدة يتقدم، بس شرطنا يتوضأ قدامنا هنا، اذا ما ادیناه فرصة، المرة الجاية حيمشي يعمل الزبيبة الغالية ويدفع مية جنيه ويشتري ليه معاها شهادة داعية، ويقول ليكم اها انا جيتكم نبي عديل!

18

بدأت رياح الشتاء الباردة المحمّلة بالغبار تغزو العالم، قال الطاهر بعد صلاة المغرب في المسيد: السنة دي البرد الظاهر حيكون شديد!

قال شيخ النور: البرد حيكون أقل من السنة الفاتت وأقل من القبلها، لكن نحن ضعفنا، والجوع كتر، عشان كدة أقلّ هوا تشعر بيه في عضمك، ما شايف الناس دي ماشة في الشوارع زي السكارى! الواحد بقى زي المركب الشراعي، يحدد مشواره على حسب إتجاه الريح! الا في ناس ماشة عكس الريح! ومين غير الحكومة وناسها يقدر يمشي عكس الريح؟

وكأنه تذكر شيئا على ذكر الحكومة فقد نظر بإتجاه فارس النائم على حصير الصلاة وقال : أها حتعمل شنو السنة دي، بتقدر تاني على الزراعة بعد ما بقيت مسعول كبير والوزارة كانت (قاب قوسين أو ادنى) زي ما بيقولو في الاخبار؟

ضحك الطاهر وقال: هو وكت كان مزارع عديل ما قدر ينتّج حاجة، خليته يزرع معاي عشان خاطر والدته جات إتكلمت معاي، قالت لي الولد دة مشى عرّس ليه بت من الشرق وهسع قاعد ساكت الناس خايفة ما يلتزم في الزراعة، رفضوا يخلوه يزرع معاهم. أها أول يوم ليه معاي، مشيت الحواشة بدري لقيته متلفح في بطانية، وكت شفته من بعيد قلت الزول دة خلي بالك

ما عنده عوجة ما دام بيقدر يصحى بدري كدة، أها قلت ليه مالك بدّرت شديد كدة ولا عشان أول يوم؟.

قال لي أول يوم آخر يوم ما بيفرق معاي، لكن أنا جيت إستحميت في موية البابور الدافية.!

قلت أهظر معاه شوية، قلت ليه مالك مستحمي بدري كدة، زنيت ولا شنو؟

قال لي: أيوة!

أنا ما كنت متوقع اجابته دي. قلت ليه مش عيب تزني وأنت عندك زوجة؟

قال لي: ما معاه هو ذاته!

صمت الطاهر برهة، ثم شرب من كوب الماء بجانبه، وسعل، وقال: أنا قلت الزول دة يمكن مخه ما تمام ربنا يستر على الموسم ويتستر معانا. لكن اشتغل كويس، الزول ماشاء الله نصيح، يخبط الطورية في الواطة العطرون القوية، يقرّب يصل الموية من ضربة واحدة. بعد اسبوعين قاعد شغال في أمان الله سمع صوت صفارة البص، عجبته الصفارة، قال لي دقيقة بجي راجع. تاني ما شفته الا بعد تلاتة سنين.!

وكت رجع بعد التلاتة سنين، جاني أنا في نفس المحل أقرع الموية، سلّم عليّ وقعد جنبي ما جاب سيرة لحكاية سفره قبل يكمل موسم الزراعة ولا أنا سألته، بيني وبينكم أنا خفت اسأله يبقى لي في رقبتي يقول داير حقه! مع أنه هو اشتغل معاي اسبوع بس لكن طبعا زول فتوة. فطر معاي وشرب الشاي وساعدني كمان شوية في الشغل. بعد الفطور سألني: ما ماشي العمرة؟

قلت ليه العمرة فتحت؟

قال لي : أنا فتحتها!

ضحكت وقلت ليه: انت بقيت وزير الشئون الدينية والأوقاف ولا لقيت ليك مفتاح واقع ؟

قال لي: لأ، لكن شغال مع زول عنده وكالة سفر وبنعمل للناس اجراءات العمرة والحج! قلت أشوفه يقول شنو. قلت ليه: أنا داير أمشي الكويت! إتحيّر شوية وقال لي : ما متأكد لو في عمرة للكويت لكن ممكن أسأل الزول بتاع الوكالة! أنا كنت قايله زول مدردح وقرأ شوية، لكن اكتشفت ان ما ناقش حاجة!

ضحك سليمان الاعرج وقال: مشى لحاج محجوب غشاهم قال ليهم بسفركم الحج، قالوا ليه نحن مشينا وقفنا في الصفوف وفي النهاية ما لقينا طريقة والاجراءات خلاص قفلت.

قال ليهم قفلت للناس المساكين لكن نحن عندنا سكة بي ورا مع الوزارة بندخّل ناسنا.

أها أدوه حق التذاكر مع الجوازات والرسوم، وشال منهم كمان مصاريف سفره، و قال ليهم استعدوا للسفر خلال اسبوع، وركب البص. أها حاج محجوب وزوجته مساكين استعدوا للسفر وجهزوا الحاجات واستلموا الجوابات والوصايا للمغتربين. زولك كالعادة رجع بعد ست شهور، كانوا الحجاج سافروا ورجعوا والناس قاعدين يستعدوا لحج السنة الجديدة.

يوم واقف في الشارع منتظر لي زول، البص وقف. وزولك نزل، مانع تقول بياكل في الخرطوم دي مع عمايا. تحلف تشوفه ما تقول الزول دة قاعد في

بلد الجوع دي، تحلف تقول نحن مافي زمن الانقاذ. وكت نزل من البص، البص قام وقعد! يادوب إتنفس، الناس كلها هزلانة وجبة واحدة بس في اليوم، قلت ليه وينك يا زول الناس ديل ما منتظرنك للحج، جة ماشي علي يقدل، عاجباه صحته وقوته.

قال لي: ربنا ما رفع كراعهم، أرفعها بالقوة!

ضحك فارس وقال: والله أنا عملت المستحيل، لكن اتضح لي بتاع الوكالة زول مستهبل، كوز كبير بيقدر يسفر الناس لكن لازم تدفع ليه قروش تقيلة.

قال الطاهر: هسع بقى في حج فاخر كمان!

قال شيخ النور: حتى في الحج فرزوا الناس! هو الحج حكمته اصلا الناس دي تتساوى غني وفقير.

هسع عموما الناس تساوت في الظلم. طبقة فوق الجماعة الطيبين الكيزان وناسهم. وطبقة كبيرة تحت، ياه الشعب كله. وحتى الفقر ذاته درجات، ناس ما لاقية تاكل وناس نست الأكل، أملها كله النهار يعدي وما تجي بفوقهم طيارة ترمي براميل البارود فوق رؤوس أولادهم.

قال الطاهر: أها يا فارس تجي تزرع معاي ولا منتظر ليك حاجة! بس قدّام الناس ديل لو زرعت معاي نعمل كونتراكت، والناس ديل يشهدوا، تكمّل الموسم لغاية نشيل المحصول. لو جة بص وضرب بوري، لو جة لوري لو جات طيارة ما ليك دخل بيهم!

فكّر فارس قليلا قبل أن يقول: لأ ، الزراعة ما بتنفع معاي، أنا بقيت زول أفندي. معقول بعد كنت قريب من الوزارة أرجع تاني للحمارة! أنا كنت منسق

الشرطة الشعبية في المنطقة دي كلها، معقول أرجع تاني تربال! وكت سيرتي تجي الحرامية يموتوا بالخوف!

ضحك الطاهر: واها الحرامية ديل هم الرفدوك!

واصل فارس كلامه: داير أرتاح شوية من الشغل ، لو الناس ديل سلموني مكافأة نهاية الخدمة داير أعمل لي دكان وأقعد قدامه.

قدامه ولا وراه، انت ما زول عمار، حيجوك العذبات حتديهن السكر بالدين وبعد شوية حتقفل الدكان، لكن ما مشكلة يمكن لغاية ما تفلس ، يمكن تلقى ليك فرقة تاني مع الجماعة

قال سليمان الاعرج: أنا رأيي انت عملت خبرة في شغل الشرطة الشعبية، ودة المجال الوحيد النجحت فيه، عشان كدة افضل حاجة تعمل ليك نقطة بوليس حقتك وتشتغل براك! اصلها البلد غابة، القوي ياكل الضعيف. أحسن تعمل قانونك براك!

رد فارس: قبل فترة قالوا قبضوا جماعة عاملين نقطة براهم، قبضوا ناس وغرموهم وحاكموهم.

قال شيخ النور: أكيد بيكون عندهم شوية رحمة أكتر من الحكومة، غراماتهم معقولة وبيعاملوا الناس كويس ومافيش ضرب وتعذيب

فكر فارس وقال: والله فكرة كويسة لكن أخير نشتغلها من منازلهم، لأن الحكومة دي لو فكرت تنافسها في الشغل البتقلع بيه قروش الناس ما بتخليك. خلوني أجرب السكر والشاي والصابون، لو الدكان خسر بشوف ناس البنك يدوني سلفية أو توكيل أبيع السماد.

أها ولو قروش البنك خسرت!

قال الطاهر: السماد ما بيخسر، مافي نسوان بيشترن السماد عشان كدة ما حيضطر يبيعه بالدين!

لو قروش البنك راحت، حاشتغل بنظرية يا الحمار مات يا السلطان مات، يا الحكومة اتقلبت، يا البنك اتحرق يا أنا ذاتي مت!

ولو دة كله ما نفع؟

بمشي الجهاد! قالوا لو مشيت الجهاد الجماعة بيدفعوا ليك ديونك.

انت نايم وين؟ الجنوب انفصل، لكن الجهاد برضه ما وقف، إتحول علينا نحن المساكين!

قال فارس: يا زول الجهاد ما بيقيف، ممكن يغيرو اسمه، لأن الحكومة دي بدون حرب ما تقدر تقعد! ولو الجهاد وقف في حاجات تانية.

زي شنو؟

نعمل اسبوع تضامن مع رمز السيادة ضد اوكامبو! نأجر لينا مكرفون وننادي الناس هنا في المسيد ونعمل لينا شوية يافطات: ندين ونشجب، حيجوا الجماعة يدفعوا لينا!

ضحك شيخ النور وقال: يدفعوا ليك من وين؟ البترول راح، هسع القروش من شدة ما بقت شوية، ما بتكفي جيش الجماعة الكبار والمؤلفة قلوبهم، عشان كدة جماعة الحكومة المشاكل كترت بينهم..

19

غبت في المرة الأخيرة لحوالي السنتين. المنظمة التي أعمل معها إنتقلت للعمل في مدينة قريبة من الحدود الشرقية مع إثيوبيا. لم أتمكن من الحصول على عطلة طوال أشهر طويلة بسبب غياب زميلي الذي كنت أتبادل معه العمل. حين عدت إلى القرية إكتشفت أن عددا من أصدقائي إنتقلوا إلى الدار الآخرة في فترة غيابي.

كنت كلما إفتقدت شخصا ما وسألت عنه اسمع أنه مات. سألت عن شيخ سليمان وكان رجلا لطيفا حاضر البديهة، كان قد ورث عن والده مهنة نجارة المراكب الشراعية، وكان يعالج كسور العظام ويعالج أيضا بعض الأمراض بالأعشاب. حين سألت عنه وكنت أنوي أن أذهب للسلام عليه في بيته في طرف القرية الجنوبي، جاءني الرد انه انتقل إلى الدار الآخرة فجأة. قال شيخ النور: صلى معنا الجمعة. وجاء وتغدى معنا هنا في المسيد، بعد صلاة العشاء ناداه واحد من الأولاد لأن السرة بت عبد الرحيم قالوا وقعت في الطين ورجلها إتكسرت، مشى مع الولد والصباح سمعنا خبر وفاته، قالوا صحى بدري وصلى الصبح وقاعد يسبح مشت زوجته تعمل الشاي رجعت لقته راقد في حصير الصلاة. نادوا على المساعد الطبي قال ليهم الزول دة متوفي.

قلت بأسى وكأنني ألومهم على موته : كيف تتركون مثله يموت؟

قال الطاهر: يعني نعمل شنو ؟ نمسك روحه نربطها؟ يومه تم!

شعرت باليأس في حديثهم. لايملكون ولا حتى الرغبة في تغيير شيء أو حتى الحفاظ على شيء، لولا ان حضر فارس بعد قليل.

سأله شيخ النور: كنت وين يا اخينا؟ حايم مطلوق مافي والي يسألك.

قال: سليم كان ضابح، كرامة وصول أخوه من أمريكا..

سأله الطاهر: قبل اسبوعين كان ضابح سماية ولده. مش كان افضل يعملوا الكرامتين مع بعض!

قال فارس: والحسادة العليك شنو انشاء الله يضبح كل يوم، قاعدين يضبحوا من زريبتك؟ بعدين اخوه جة هسع بعد زوجته وضعت بشهر. حيقعد كلما المرة تلد ينتظر اخوة لغاية يجي من امريكا عشان يوفر ليه عتود!

قال شيخ النور: الطفل المولود الجديد قالوا كان عيان شوية بقى كويس؟

قال فارس: الشافع نصيح ما شاءالله وسمين تقول بيرضع مع عمايا!

ضحك شيخ النور وقال: خلاص سحرته بعينك ، اصلا الولد الاول كان عيان من ولدوه لغاية مات. ودة هسع لو ما الليلة لحقوا بشيخ قوي حيلحق برضه امات طه!

ضحك فارس: اخوه قاعد يرسل ليه قروش، لو مرض واحد من الاولاد ممكن يوديه المستشفى يعالجه، المشكلة فينا نحن ناس قريعتي راحت لو جاتنا ملاريا نروح فيها. والجماعة يقولو يومه تم! اديني الدوا وخلي اليوم يتم براه، مش تتمه من جيبك!

قال شيخ النور: وانت قريعتك راحت ولا ودرتها براك؟ ما كنت لامي الجماعة وفقرتك بالسرقة معاهم بقت قدر الحيطة دي. بدل تاكل العضم البيرموه ليك

وانت ماسك خشمك مشيت داير تقسم معاهم في النهب التقيل، رموك برة زي الكلب. جايي هنا تهوهو فوقنا نحن المساكين!

والله انا رغم اني كنت بهمبت شوية لكن جنب اكتر واحد فيهم نضيف انا نبي!

قال الطاهر: اها واستفدت شنو، لا قعدت نضيف بعيد منهم لا لميتهم بعدلك وسويت ليك قصر وشركة. دخّلو فوقك الفزع وفكوك فوقنا مضايقنا في رزقنا. الكرامة الفي تبقى سيدها، الناس قدر ما يحاولوا يجهلوك وكت يكون في عرس ولا كرامة وما يدعوك عشان يقدروا يأكّلوا الضيوف البيجوا من بعيد. برضو يلقوك أول زول في وشهم، اول صينية تمرق تستلمها!

قال فارس: هسع الجماعة ديل قالوا دايرين حوار. عمك بعد الوثبة رقد مستشفى غيّر الركب، العلاج الطبيعي قالوا بالدلوكة. يدقوا ليه وهو يرقص لغاية الركب الجديدة تسلك. الخازوق بس الركب تكون ما أصلية قبل ما تسلك كويس يكون ردف سبيكة!

ضحك شيخ النور وقال: وانت صدقت دايرين حوار، ديل بيكسبوا في الوقت والسيد بقى معاهم، زمان كان اي زول يجيهم للحوار يغمتو ليه قرشين، ويدوه ورقة يمضيها، يي دة حوارهم. ويغشوه بمساعد رئيس ولا مستشار، هسع القروش كملت، سرقوا البلد حولوها ماليزيا، والواطة في كل مكان باعوها، ورئيسهم عدم الركب، يعني البيجيهم دة حيكون زول متطوع ساكت.

تذكرت حسن ولد حاج سعيد، كان صغير السن حين سافرت في المرة الأخيرة لم يتجاوز عمره انذاك الخمسة عشر عاما، لكنه كان معروفا في

القرية وفي القرى المجاورة، كان يغني على آلة الطنبور بصوت لم اسمع في حياتي أعذب منه. كان يؤلف بنفسه بعض الاغاني البسيطة ويؤديها في المناسبات، وفي المرة الأخيرة التي إلتقيته فيها قبل سفري، قال لي أنه يحاول تعلم العزف على آلة الاكورديون. فرحت حين تذكرته. كان صغير السن وصحته جيدة، لابد أنه حيّ حتى وإن كان لا يرزق شيئا بسبب عدم شهرته. أخيرا سأجد شخصا حيا ممن أسأل عنهم.

إنتهزت فرصة صمتهم بعد موضوع الحوار والوثبة في الفراغ، وقلت: حسن ود حاج سعيد، الفنان الكان بيغني أغاني الطنبور وين الزمن دة؟.

كنت متأكدا أنه اصبح مشهورا وربما انتقل للعيش في العاصمة ، لكنني فوجئت بالاجابة الصاعقة.

مات الله يرحمه.

قلت مصدوما: مات ليه؟.

قال الطاهر: يا زول انت مشيت إشتغلت مع الخواجات ديل، مرقت من الملة ولا شنو؟ مات، يومه جة. نطلع مظاهرة من المقابر نقول لأ الزول دة لسة يومه ما تم، ولا نعمل حيطة زي الكورة نحوش ملك الموت، زي الشيخ الصوفي القالو طرد ملك الموت، قال ليه الولد لسة عمره فيه باقي، أنت يمكن ماشي تقبض روح زول تاني طشيت جيت هنا غلط!

قلت : كان مريض يعني ولا شنو؟.

قال شيخ النور: الولد دة مسكين كان مجتهد، وفي الفترة الأخيرة بقى فنان معروف، الناس يجوه للحفلات من كريمة وعطبرة. كان يكره الكيزان. وليه

حق مافي زول شاف خير في زمنهم، غير السرقة والموت. اها قصدوه وكت عرفوه ما بيحبهم، بقى محل ما يمشي يغني ينزلوه يدقوه، يقولو سكران، والحال يكون هو أكتر زول واعي في الحفلة كلها، بعدين أفرض انا سكرت في روحي دي وما آذيت زول، أخير انا ولا انت السارق حق الناس؟ بسببك الرضع تاكل فيهم الكلاب في الشوارع. خاله في السعودية وكت عرف رسل ليه كرت زيارة. مشى الخرطوم يعمل الفيزا قبضوه ناس الجيش من الشارع، ودوه مناطق العمليات بالقوة وبدون تدريب، ما اخد اسبوع مات. إتلموا الكيزان يكوركوا ويرقصوا، جابوا ليهم شوال سكر وأدوا امه ورقة قالوا خلاص عقدنا ليه للحور العين!

نظر شيخ النور حواليه كأنه يبحث عن شيء ما ثم قال: يا زول انت حكايتك شنو؟ ما تطرى الا الميتين؟ أوعك تمشي تقعد في أي مجلس في الحلة دي بورانا وتقول شيخ النور وين، تجيب أجلنا.

وضعت الحذاء في قدمي، لكنني بقيت مترددا في الخروج من المسيد. عاد شيخ النور ورفاقه لحديث الحوار والوثبة. تذكرت صديقا آخر لم أراه منذ عودتي، النور الأحمر، كان قد إنتقل للعيش في قرية مجاورة، تزوج منها بعد أن رفضت زوجته العودة إليه بعد الطلاق. كان النور الأحمر مشهورا بقوته الخارقة، وكان سباحا ماهرا.

أمسكت لساني في آخر لحظة حتى لا يرتكب جريمة أخرى. آثرت أن أعيش على أمل أن يكون شخص واحد على الأقل من المجموعة التي لازلت أتذكرها قد قاوم رياح الموت الانقاذية وبقى على قيد الحياة.

20

كان فارس نائما في المسيد، إستيقظ على صوت اذان العصر، لكنه كان يشعربالتعب بسبب سهر الليلة المنصرمة، فآثر ان يدّعي انه لا يزال نائما. حاول الجماعة ايقاظه ليصلي لكنه لم يستيقظ، أزاحوه جانبا وأدوا صلاتهم بجانبه. مجرد أن أنهى الامام الصلاة، حتى فتح عينيه وقال:الساعة كم هسع؟

لم يرد عليه أحد، كان الجميع مشغولين بالتسبيح.

وضع الطاهر المسبحة في جيبه بعد قليل وسأله: امبارح كنت وين بالليل فقدناك، قلنا الزول دة يمكن رجع الشرطة الشعبية، ولا طريت السرقة رجعت تاني لاجتماعات الليل مع الكيزان؟.

رد فارس متكاسلا وهو يتمطى: والله مع فلس اليومين ديل، لو ما رجعنا المؤتمر الوطني تاني ما حنرجع!

جلس فوق الحصير وتمطى، ثم قال: بالليل مشيت عرس في الحلة غرب السوق، كانت حفلة سمحة ولامة، كلما الفنان داير يقيف يطلع السكارى يحلفوا عليه يغني تاني! يتفق معاهم ان دي آخر اغنية، وكت يخلص منها يطلعوا تاني يحلفوا عليه يغني آخر اغنية، أغنية وراء أغنية لغاية الشمس مرقت!

قال الطاهر: وين ناس الشرطة الشعبية والنظام العام! مش في حظر تجول؟

قال فارس: والقاعد يتجول مين؟ الناس بالسكر ما قادرة تقوم من محلها! يعني لا ناكل لا نفرح! بعدين الناس في زمن الانقاذ دة ضعفوا، ما عندهم مقاومة زي زمان وكت كان الخير باسط، زمان الواحد يشرب ليه جركان عرقي، تلقاه واقف زي الحيط التقول شارب موية! هسع فد كباية تلقى الزول إنطرطش ورقد في الواطة، الا نشيله شيل نوديه السرير! بعدين من زمن رفدوني من منسقية الشرطة الشعبية تاني وين في نظام عام، ناس الشرطة الشعبية أول شيء سقيناهم العرقي بعد داك شربنا!

قال شيخ النور: بختك المغتربين وصلوا للاجازة، مافي زول قاعد يعرس اليومين ديل غيرهم، كان عرس منو؟

عرس طه ولد حاج الطيب.

قال حاج النور: طه دة ياتو؟

قال الطاهر: الولد القصير التخين، الكان زمان مباري فارس دة ويمشوا يفرتقوا الحفلات.

تساءل شيخ النور: ولد قصير كدة، أخضر، ملان وما عنده رقبة؟

ضحك فارس وقال: والله انت يا شيخ النور زول حقار، يعني شنو ما لاحظت فوقه غير القصر وان ما عنده رقبة؟ والرقبة ذاتها يوديها وين؟ كدة أحسن ليه يكون مرتاح بدل يجي زول يبقى ليه في رقبته!

ضحك شيخ النور وقال: أيوة ..عرفته، ودايز يعرس بت منو؟

قال الطاهر: بت حاج عبدالله الخولي!

قال شيخ النور: حاج عبدالله عنده بت واحدة، كان يحكوا عليها قالوا سمحة بلحيل، لكن قبل سنتين تلاتة حضرنا عقدها على زول ما من البلد دي قالوا قريب امها من لا بحري!

قال الطاهر: كلامك نصه صاح، لكن البت ما قعدت مع الزول دة، اتطلقت، قالت راجل كبير ورفضت تعيش معاه لأن قبل دة عرّس مرتين لكن ما لقى الجنا!

ضحك فارس وقال: أم البت انا بعرفها، تحب الهزار، زمان وكت كنت شغال في تراكتر سعيد كنت بمشي أحرت ليهم الواطة القدام البيت، كانت تجيب لي الاكل وكت زوجها يكون في الشغل. قبل ايام مشيت عشان اسلم على طه وكت جة من السعودية. وبعد اتغديت معاه قلت أمر على حاج عبدالله اقول ليهم عوافي، لقيت الحاج مافي، المرة ما قصرت ضيفتني واصرت اشرب معاهم شاي المغرب وعملت زلابية. قلت ليها البت لي طلقتوها من الراجل دة قالوا رجل غني وعنده قروش كتيرة!

رفعت يدها اليمين كلها ومسكت اليد من آخرها باليد الشمال وضمت الكف وقالت لي: القروش بيجيب دة!

قلت ليها لكن الزول دة قالوا قريبك وانت الاصريتي تعرسي ليه البت، الحاج كان ما دايره والبت كمان قالت ما دايرة زول متزوج! وكت انتي عارفاه ما عنده دة، عرستي ليه البت ليه؟ والا عشان غني دايرين تهمبتو منو قرشين وترموه!

قالت لي: البت أدوها عين، اي زول يقول سمحة، بقى اي عريس يجيها تحصل مصيبة ما تتم القسمة، مشيت للشيخ قال لي في عارض، وكت الزول دة اتقدم، قلنا ما نعارض الموضوع ما ناقصين عوارض، يمكن براه قبل العرس يموت ولا تحصل ليه مصيبة، ولو الموضوع مشى يفك لينا العارض. زولك طلع فقيره قوي، والعرس تم. لكن البت رفضت تقعد معاه.

قال شيخ النور أها وطه جاب ليك شنو من السعودية!

قال فارس والله يا اخوانا المغتربين انتهوا، عدموا الحبة.

قال الطاهر: إنتهوا كيف؟

جاب لي مصحف! وفي المصاحف ذاتها جاب لي واحد (صغيّر)، داير ليه عدسة عشان تقدر تشوفه خليك من تقراه!

قلت ليه كتاب الله ما بناباه، بس انت متين الله تاب عليك وبقيت تهدي مصاحف كمان، وكت جبت مصحف طيب ما كان تجيب واحد كبير شوية، ما عارف الناس هنا بالجوع في زمن الانقاذ، جبل يكون واقف قدامك تجي تخبت فوقه وتمشي!

ضحك وقال لي: انا عارفك ما عليك تقل شديد في الدين، جبت الصغير دة عشان تختمه بسرعة وتخلص!

21

كان المساء يرخي سدوله حين عاد عدد من صبية القرية من رحلة السباحة في نهر النيل، كانوا قد هربوا صباحا من القرية بسبب منعهم من الذهاب إلى نهر النيل الذي إرتفع منسوب مياهه ، من على البعد كانت القرية هادئة وقد بدأت تغرق في الظلام، قال احد الصبية: هدوء القرية الشديد يثير الخوف ربما يقوم رجال الجيش بتفتيش المنازل بحثا عن الشباب! جلس الصبية فوق الرمال فور سماع كلمة الجيش. قرروا التريث قبل دخول القرية، قبل أيام قام رجال الجيش بغزو القرية بحثا عن شباب لتجنيدهم وارسالهم لمناطق الحرب، لحسن الحظ أن المجموعة كلها كانت آنذاك خارج القرية، كانوا قد ذهبوا للمشاركة في نفير لبناء بيت أسرة أحد زملائهم في المدرسة، كان بيتهم قد تهدم بسبب فيضان نهر النيل.

بزغ القمر فجأة فغرق العالم في الفضة. كانوا قد تناولوا إفطار رمضان في بيت زميلهم وغادورا بعد ذلك للحاق بصلاة العشاء والتراويح في مسيد قريتهم. كانوا يشعرون بالجوع والتعب لكن الاسترخاء فوق كثبان الرمال القمرية كان رائعا ، تتماوج من حولهم أصوات الصبية من على البعد يلعبون شليل في ضوء القمر ، اضافة لعزف وغناء عاشق حزين على الطنبور، يحمله هواء الدميرة في موجات متقطعة حسب اتجاه الريح.

فجأة إنهار سكون العالم كله على صوت اطلاق رصاص كثيف! يا للكارثة لابد أنهم رجال الجيش اذن! ولماذا يطلقون الرصاص؟ ربما هرب بعض الشباب او رفضوا اطاعة اوامر التوقف فأطلق الجيش النار عليهم! يحدث ذلك كثيرا حين لا ينصاع المجندون للأوامر؟ يذكرون الحادثة التي وقعت قبل سنوات، حين حاول الشباب في احد المعسكرات الهرب لقضاء العيد مع ذويهم، اطلق المجندون النار عليهم في ظهورهم دون رحمة، ربما هاجمت إحدى الميليشيات المسلحة التابعة للجيش القرية للبحث عن متمردين ضد الحكومة.

شعر الصبية بالقلق والخوف حتى أنهم قرروا العودة لمعرفة ما يحدث حتى وان كان هناك خطر عليهم، كانوا يشعرون بخوف شديد، ربما أصيب بعض أهل القرية في إطلاق النار، تقدموا داخل القرية بحذر لكنهم فوجئوا بوسط القرية هادئ تماما ولم يجدوا أحدا في المسيد رغم ان موعد صلاة العشاء قد اقترب. وقفوا امام المسيد على امل ظهور شخص ما يشرح لهم ما يحدث في القرية. إقترح احد الصبية أن يجلسوا داخل المسيد لأن موعد صلاة العشاء اقترب وسيحضر أهل القرية بسرعة لأداء صلاة العشاء التي يعقبها صلاة التراويح، لكن بقية الصبية فضّلوا أن يبقوا في الخارج على أهبة الاستعداد للهرب ان ظهر رجال الجيش..

فجاة سمعوا مرة اخرى صوت اطلاق رصاص من على البعد، بدا لهم قادما من الجزء الشمالي للقرية، فتحركوا فورا إلى اتجاه اطلاق النار.

حين وصلوا وجدوا عددا كبيرا من اهل القرية يقفون في ميدان مفتوح في المنطقة المطلة على المزارع. لم يستطيعو تبين الوجوه جيدا في ضوء القمر، لكن كل كبار رجال القرية كانوا موجودين هناك، يتقدمهم عظماء القرية الذين يقفون في المقدمة، كان هناك شيخ علي رئيس اللجنة الشعبية و حوله كل اعضاء اللجنة الشعبية في القرية. عرف الصبية ان شابا هرب من الجيش كان يطلق النار في الهواء من سلاحه وقد فزع رجال اللجنة الشعبية لاعتقادهم بوصول بعض الحركات المتمردة إلى مشارف القرية. شرح لنا شيخ النور أنّ الشاب هدد بإحراق القرية ان لم تجاب مطالبه.

كان شيخ علي يحمل ميكرفونا في يده ويتحدث مع الجندي الهارب طالبا منه تسليم سلاحه والاستسلام. وكان شخص آخر يحمل الميكرفون ويناوله للجندي عبر حائط قصير كان يقف خلفه. كان كلام الرجل واضحا يجب خروج جميع الاشخاص الذين ينتمون للنظام من القرية والا انه سيقوم بفتح النار على الجميع!

اعطى شيخ على المايكرفون إلى شيخ النور وجدها شيخ النور فرصة لشتم الحكومة على الهواء وفي حماية شرطة القرية، قال له : يا بني كلنا معك ان هؤلاء مجرمون دمروا البلد ونهبوها، وولعوا الحرب في كل مكان وفتنوا الناس في بعضها، الناس الكانت عايشة مئات السنين في سلام مع جيرانها ويحلوا مشاكلهم بالاجاويد، شالوا السلاح ضد بعض، لأن الحكومة تفرح وقت تلقى مشكلة صغيرة بين اتنين طوالي تناديهم كل واحد على جنبة تدي واحد عكاز والتاني سكين وتقول ليهم: ما حك جلدك غير ظفرك! أها الحك بقى كتير

لامن جاب الدم! نحن معاك ديل يستاهلوا الكتل ويوم حسابم جايي لكن ذنب الناس التعبانة هنا دي شنو؟ عشان يدفعوا تمن عمايل الكيزان؟ الا يكفيهم ما هم فيه من فقر وفشل للموسم الزراعي، تعال يا ولدي سلم سلاحك وخلينا نتفاكر كيف نقدر نحارب الناس ديل!

قال سليمان الاعرج هامسا: يا زول اعمل حسابك مالك عاوز تجيب لينا الجنجويد هنا؟ بكرة يجوا يقبضوا الزول دة ويقبضوك انت ذاتك.

قال شيخ النور: لو قبضوني اليومين ديل تكون فايدة، لأن العيد قريب وما عندنا قروش نشتري بيها ملابس لاولاد بنتي القاعدين معانا. وعيد الأضحى كمان قريب، محتاجين تمن الخروف ، على الاقل في السجن الزول أو البنك الطالبك قروش ما حيقدر يسجنك لأن اصلا انت قاعد في السجن!

حين تسلم الميكرفون رد الجندي على شيخ النور: انا افهم كلامك يا شيخ النور واعتذر عما سببته لكم من مضايقات لكن هؤلاء الكلاب لا يفهمون الا لغة السلاح!

وكان الناس يتسلمون المايكرفون ويتحدثون مع الجندي بطريقة اشبه ببرنامج ما يطلبه المستمعون. فيما كان شيخ علي ينظر كل دقائق إلى ساعته ويقول: لقد تأخر رجال الجيش!

قال له شيخ النور: الجيش فاضي ليك وين عشان يجي لي موضوع زي دة. انت ما تتفاهم مع الزول دة.

لكن شيخ على كان عنده فكرة اخرى.

أين صالحين والد هذا الصبي؟

قال احد اعضاء اللجنة الشعبية: يكون سكران في بيته اصلا هو وولده بيسكروا مع بعض، خلينا نخلص من موضوع الولد دة وحنرجع تاني ننط بالليل في البيوت عشان نقبض اي زول سكران!.!

رد عليه شيخ النور: إستغفر الله من حق الناس، نحن في رمضان يا شيخنا، الشرع الواجعين بيه راسنا ومستثنين نفسكم منه ذاته بيقول ولا تجسسوا، بعدين الولد دة انت قبضتوه من الشارع ووديتوه الجنوب يحارب بالقوة معاكم انتم اصلا لو مقتنعين دة جهاد ما تمشوا تجاهدوا بدل ترسلوا اولاد الناس المساكين وانتوا قاعدين هنا ورا العرس والدنيا، الحور العين دي أولى بيها انتم بدل ترسلوا ليها اولاد المساكين الما عندهم شيء غير اولادهم!

بعد قليل حضر الأب ، ترجاه شيخ على، يا صالحين قطعة الارض الطلبتها خلاص صدقناها ليك، بكرة برسل ليك التصديق مع الولد. وحأشوف ليك حواشة في المشروع الجديد بس عليك الله شوف لينا ولدك دة يسلم سلاحه عشان مصلحته هو ذاته ومصلحة البلد.

امسك صالحين بالمكرفون وقال: اذيك يا عثمان كيفنك، والله مشتاقين ليك من ما ناس الجيش ساقوك ونحن نفتش في اخبارك. كان شيخ علي يتعجل في صالحين،: خلي السلام هسع يا شيخ صالحين وقول للولد يسلم السلاح.

لكن العم صالحين مضي يتحادث مع ابنه ولم يعر كلام شيخ علي أدنى اهتمام.

يا ولدي نعجتك ولدت، جابت تيمان خروف ونعجة، والحمارة الكبيرة ماتت، مشيت بيها السوق قبل أيام افتش دوا لامك، ربطتها في طرف جدول الظاهر

فيه اعشاب سامة، كانت تعبانة ما قادرة تقوم، والصباح لقيتها ماتت، حاولت اجيب ليها دوا، لكن البيطري بعيد مشواره داير مصاريف والدوا ذاته غالي، دوا امك غلبنا كمان نشتري من وين دوا للحمار . والموسم السنة دي فشل، البرد ذاته أبى يجي، الزراعة عطشت والفول مرض بالعسلة لأن هوا أمشير ذاته ابى يجي. حسين خلى المدرسة، كل يوم يطردوه عشان ما دفعنا الرسوم مشى الخلا يفتش الدهب، البرد شديد في الخلا مرض بالحمى، لكن هسع كويس. والحمدلله نحن بخير، امك بتسأل عليك، إسمك طوالي في لسانها، كان عندها ملاريا وديناها الحكيم قال لازم تتغذى كويس واداها شوية حبوب لكن لسة راقدة. والحمدلله نحن كويسين .....

قاطعه شيخ على: يا شيخ صالحين الحكاية شنو نحن جايينك عشان تحكي قصة حياتك ولا كان رايح ليك ماكرفون وناس تحكي ليهم . العيد باقي ليه أيام والناس دي كلها عاوزة ترجع بيوتها تستعد للعيد، خلصنا اعمل معروف وخلي الزول دة يجي يسلم سلاحه وانا اضمن ليك الموضوع ينتهي هنا دة وولدك تاخدو في يدك وتمشي هسع.

قال شيخ النور لسليمان الاعرج الذي يجلس بجانبه: كضاب، وليه اتصل بناس الجيش وقالوا ليه حنرسل ناس عشان يقبضوا عليه لأن هارب من الجيش!

واصل صالحين وكأن شيخ علي لم يتكلم معه ابدا:

عمتك السرة سافرت كسلا عشان بتها قرّبت تولد، بتها الصغيرة نفيسة جاها عريس لكن الحمدلله رفضته، يا ريت يا ولدي تبقى من نصيبك والله بت

رجال، أدب وعلم، علّمت نفسها براها، طبعا انت عارف من أبوها مات خلّت المدرسة وبقت تساعد امها في رعاية البهائم، تحلب البقرة براها وتساعد اخوها في الزراعة، أخوها برضه مشى الدهب، وكت لقى الزراعة ما جايبة همها. الناس كلها يا ولدي بقوا في الخلا يفتشوا الدهب، الرزق ضاق والحياة بقت صعبة، زمان كان المغتربين يساعدوا الناس شوية هسع احوالهم ما زي زمان، سمعنا قالوا بعضا منهم جوا برضو يفتشوا الدهب! يا ولدي لو قدرت بعدت من الناس ديل لازم تجي تزرع السنة دي عشان تساعد ابوك انا خلاص العيشة غلبتني يا كمان تشوف ليك طريقة تمشي عمرة. اخوك خلى المدرسة مشى الدهب، وامك عيانة وانا ذاتي والله تعبان والرطوبة قربت تحميني المشي، العجل وديته بعته في السوق عشان نعالج امك!

خاطب شيخ علي شيخ النور: يا النور ما تتكلم مع الزول دة يخلصنا من حكاية العجل والبقرة الما عاوزة تخلص دي!.

قال له النور: لو كان عنده عربية ذيك يا شيخ علي كان اتكلم معاه في العربات، كل زول يتكلم حسب ظروفه، بعدين انت مستعجل مالك، ولا الليلة ماشي تبيت مع المرة الجديدة؟ لو صبرت شوية كلام الزول دة حيخلي الولد يهدأ ويجي براه يسلم سلاحه، ثم ضحك شيخ النور وقال: طبعا يا شيخ علي انت داير تحاول تخلّص الموضوع قبل ناس الجيش يجوا عشان تعمل فيها فعلا زعيم للبلد وكلمتك مطاعة!

شعر شيخ علي بالحرج لكنه هز رأسه ولم يقل شيئا.

واصل صالحين الحديث الهوائي مع ولده: والله يا ولدي من ما ناس الجيش ديل ساقوك، امك مرضت وطوالي كلما تسمع حركة في الباب تقول دة عثمان، قبل يومين ابو البشير كورك فوق الشجرة أمك رفعت راسها اول مرة من كم يوم وقالت: عثمان جة، ثم ضحك وقال ابو البشير شافك جايي لكن ما شاف السلاح المعاك دة، أمك تصدق الطير وتقول الرادي كضّاب! انت زمان كنت تحب الراديو يا عثمان، تتذكر وانت صغير ادوك راديو هدية في المدرسة وكت طلعت الاول؟ كنت دايما تحب تسمع الراديو بالليل انا كنت دائما ألقى الراديو شغال في الصباح وكت اصحى لصلاة الفجر. انت نايم والراديو يكضب! الزمن داك الكضب كان قليل، هسع كلام الراديو كله كضب، تعب وجوع وغلاء والراديو يغني ويقول نحن بقينا دولة عظمى! ونحن تعبانين الاولاد كلهم هجروا المدرسة ومشوا الخلا يفتشوا الدهب، لو كان فوقنا حيل نحن ذاتنا كان مشينا نفتش. لكن وجع الضهر تعبني شديد وامك بقت دايما عيانة. مسكينة لو شافتك انشاء الله تبقى كويسة.!

كان شيخ علي يتململ وينظر إلى عقارب ساعته الفسفورية ويصلح من وضع عمامته الضخمة، ويمشط لحيته بيده، فيما واصل صالحين رواية الحكايات لولده وبدا المشهد مثل أم تهدهد صغيرها قبل ان يخلد للنوم:وكت بعنا العجل قلنا نوفر شوية قروش نصلح البيت شوية قبل ما ترجع لكن العلاج غالي يادوب تمن العجل غطى تكاليف علاج امك، وما قدرنا ندفع لي حسين عشان يرجع المدرسة، هسع مشى في الخلاء يفتش الدهب. هناك قالو انت وحظك يمكن تقعد سنة كاملة ما تلقى أي شيء. دة غير التعب

والعقارب والمشاكل، قبل يمشي الدهب مشيت عشان اقابل شيخ الأمين قلت يمكن يدينا حواشة في مشروعه عشان حسين يزرعها، وكت وصلت حلتهم عرفت ان شيخ الأمين في السجن، مسكين قالوا ما قدر الموسم الفات يسدد البنك، جوا ناس البنك قبضوه، قال ليهم انا عشرين سنة زبون عندكم حصل اتأخرت في السداد؟ الحكومة ما قدرت توفر الديزل الزراعة عطشت والموسم فشل، وبعد دة انا أتحمل المسئولية لوحدي؟ قالوا اهله في السعودية قاعدين يلموا القروش عشان يجوا يدفعوا ديونه للبنك، وطبعا بعد ظروفه دي ما اظن يقدر يجي يزرع المشروع السنة دي، كان نفسي حسين يتم قرايته هو ذاته شاطر زيك، لكن ما أدوه راديو وكت طلع الاول زيك! الزمن دة المدارس تقلع بس ما بيدوك حاجة! انا متذكر يوم انت طلعت الاول وأدوك راديو، جيت شايل الراديو وكنت فرحان فرح شديد امك زغردت، وجوا الناس باركوا لينا، ضبحنا خروف ، الدنيا كانت بخير يا ولدي قبل يجوا الناس الشوم ديل، رطل السكر كان بملاليم، وشوال العيش كان بخمسة جنيه ولا يمكن اقل. العلاج كان مجان وفي المدرسة يدوك مصاريف، هسع ياخدوا منك وبعد دة علم مافي. يوم ادوك الرادي، الرادي دة اشتغل تلاتة يوم لغاية حجارة البطارية ضعفت. مشيت السوق جبت ليك حجارة جديدة. كان نفسنا تبقى دكتور يا ولدي، تعالجنا، هسع انا وجع الضهر والرجلين حيحميني المشي بعد شوية وأمك بقت راقدة في السرير، الحكيم قال دايرة عملية في الركب الا تودوها الخرطوم، والعلاج غالي، شيخ محجوب قال مشى الخرطوم بوجع الركب، قالوا ليه دة العمر، الزول وكت يبقى عمره سبعين سنة خلاص

الركب ما تقدر تشيله تاني، الدكتور قال لي شيخ محجوب نغير ليك الركب، سبحان الله حتى الركب بقوا يغيروها، الناس بقوا زي العربات، يفكوا القديم يرموه ويربطوا ليك ركب جديدة، من محلك تقوم سداري، لكن قالوا غاليه، اسبيرات الظاهر اصلية، قالوا ليه العملية تتكلف كم مليون من ورق الزمن دة البيسموه جنيه، قال ليهم ليه اوديها وين الركب الجديدة ماشي ألعب في الهلال ولا في المريخ ولا يمكن ناس البرازيل دايرين يجوا يتعاقدوا معاي! مع انه حاج محجوب دة عمره ما شات ليه كورة برجله!

تمكن شيخ علي من العثور على سليمان شقيق صالحين واحضره، تحدث سليمان مع صالحين وترجاه ليطلب من عثمان تسليم سلاحه ليذهب معهم إلى البيت لأن امه في انتظاره.

رفع صالحين الميكرفون، حمد شيخ علي الله لأن المشكلة على وشك ان تنتهي: قال صالحين يا عثمان: متذكر .. ثم صمت برهة شعر بها شيخ علي كأنها دهر، ثم واصل: شجرة الليمون الكنت زرعتها قبل ما تمشي؟

سقط شيخ علي ارضا من فرط المصيبة. فيما واصل صالحين الحديث مع ولده حول العجل والبقرة والمشاكل الاخرى.

قال صالحين: شجرة الليمون ليها سنتين ما طرحت أي ليمون ولا نورت، نصحونا قالوا نربط بعرة حمار في قطعة قماش ونعلقها في الشجرة، حسين عمل ليها سماد بزبل الحمام، الحمدلله طوالي نورت واتملت بالليمون، حسين كان بيودي االليمون يبيعوا في السوق، ساعدنا شوية في مصاريف البيت والدوا. الدوا بقى غالي، لو ما بعنا التور ما كنا نقدر نعالج أمك.

قلت ليه أرجع المدرسة يا ولدي، رفض قال لي حيطردوني تاني والحالة ما بتسمح لازم ألقى شغل عشان اساعدكم،

كنت متمني واحد فيكم يواصل تعليمه لأن انا بسبب الظروف ما قدرت، المفتش الانجليزي جة الحلة وقال لي ابوي ودي الولد المدرسة ابوي قال ليه نحن ناس فقراء، ما بنقدر على مصاريف المدرسة والولد لو قعد بيساعدني في الزراعة، المفتش قال ليه المدرسة مجانا، ولو الولد جة المدرسة بنعفيك من الضريبة، والولد وكت يقرا ممكن يشتغل وظيفة كويسة ويساعدك. ابوي كان متردد، امي اصرت وقالت ليه خلي الولد يمشي لو ما نفعت المدرسة الزراعة موجودة، الارض ح تروح وين؟

بديت المدرسة، بعد سنة واحدة يا دوب اتعلمت افك الخط، ابوي مات، اجتمعوا اعمامي وقالوا انا لازم اقعد في عقاب ابوي، لأن انا الولد الكبير، واخواني صغار انا لازم اشتغل واراعيهم، عقاب شنو كله بقرتين ونعجة! الله يسامحهم لو خلوني يمكن كان بقيت افندي، الحمدلله الدنيا كانت بخيرها، البهايم الخلاها ابوي خلال سنتين اتضاعفت، اخواني الصغار بقوا يزرعوا معاي، في الشتاء نزرع الفول والقمح وفي الصيف المريق عشان البهايم. بعد سنتين بنيت انا بيت صغير جنب بيتنا واتزوجت أمك، العرس كان بسيط زمان يا ولدي، عقد في المسيد وبالليل زفوا العروسة جابوها البيت، عملوا حفلة صغيرة بالدلوكة، نفيسة بت عشميق كانت مرة غناية وصوتها جميل تغني بالدلوكة وكانت بتألف الاغاني براها، مرات تغني ومرات تمدح، صوتها جميل وقوي، كانت تغني والنسوان يشيلوا وراها والشباب يرقصوا، ضرب

السوط كان ممنوع الايام ديك، لأن قبل عرسي بسنة كان عرس نجومي والد الطاهر، في ضرب السوط حميدان أخو شيخ النور قالوا كان زعلان من عبيد ولد حاج علي، لأن في آخر مرة اتصارعوا قبل سنة ولا اكتر عبيد ضربه شديد خلاه يرجف قدام النسوان، مشى حميدان أتدرب، سنة كاملة يشرب في السمن واللبن وياكل التمر عشان يقوي جسمه ويتدرب على ضرب السوط، أها وكت عبيد نزل الحلبة، طوالي حميدان نزل، عبيد قال ليه إنت ما بتتوب! ولا خلاص جلدك إتعود لو ما انضربت ما بترتاح، حميدان كشف ضهره وبرك، عبيد بقى يلف ويدور حواليه، أداه السوط الاول وحميدان ثابت، اداه التاني والتالت لغاية وصل العاشر، داير يقيف حميدان قال ليه أردب! يعني اربع وعشرين، انتهى عبيد وكشف ضهره وبرك، اخد الاول، والتاني في السابع رقد في الواطة ناشف، مسكوا حميدان لقوا عبيد ميت! العمدة طلع قرار قال تاني مافي ضرب سوط في البلد دي، من الوكت داك بقت اعراسنا ما عندها طعم، هسع أولاد الزمن دة قبل ما السوط يلحقهم تلقى الواحد براه وقع، الناس زمان بصحتها يشربوا اللبن والسمن وياكلوا التمر، جانا زمن الواطة نشفت من الموية والنخيل نشف ووقع.

قال شيخ علي: يا شيخ النور ما تشوف لينا طريقة حنخلص متين من حكاية ودخلت نملة وأخدت حبة! العيد فضل ليه ايام ولسة ما صلحنا البيوت ولا اشترينا طلبات العيد!

قال شيخ النور: نحن ما فارقة معانا. أحسن نكون قاعدين هنا لغاية العيد يجي، العيد بقى بس للحكومة وناسها. زمان الناس تفرح للعيد. هسع العنده أولاد صغار يخاف وكت يسمع كلمة عيد، حتى لو كان عيد إستقلال!

كان الوقت قد إقترب من الفجر، نام معظم الناس في اماكنهم على الرمل. بقي صالحين ممسكا بالمايكرفون ويتحدث مع ولده وبجانبه شيخ علي وحاج النور، بدأ صوت المايكرفون يضعف، أمسك شيخ النور بالمايكرفون وقال: حجارة البطارية دايرة تغيير، تعال ارتاح شوية يا صالحين، وكت الشمس تطلع نرسل نجيب حجارة جديدة.

قبل صلاة الصبح إستيقظ الجميع لتناول طعام السحور، جلسوا في حلقات وشربوا الشاي والقهوة. بعد صلاة الفجر أخلد البعض للنوم، وجلس بعض الصبية يتسامرون. بعد شروق الشمس أرسل شيخ على أحد الاطفال لاحضار حجارة بطارية جديدة لمكبر الصوت، في تلك الاثناء إمتلأت الساحة بالباعة الجوالة الذين يظهرون كل عام مع إقتراب عيد الفطر، باعة الملابس الجاهزة، ملابس الأطفال وملابس النساء. والمراكيب الفاشرية. باعة الحلوى. حلوى الكراميل المعبأة في علب ورقية وأكياس أقراص حلوى روح النعناع. باعة مساويك شجر الأراك، باعة النبق والليمون، وباعة عقود السكسك والخرز، والمسابح، وباعة الحبال.

كان رجل ينتمي لأحد الجماعات السلفية قد تجمع حوله بعض الصبية ، كان يتحدث عن ان سبب البلاء والغلاء أن الناس تركت طريق ربها واتبعت الشهوات، رغم أن العالم كان يبدو خاليا من أية شهوات يمكن إتباعها.

الشهوات تكلف كثيرا، حتى أن البعض تركها بسبب الفقر. وكانت هناك حلقة اخرى في الجانب الآخر تجمع فيها بعض اهل البلد حول فرقة مداحين متجولة. اشترى حاج النور مسبحة خرز زرقاء، وإشترى طاقية حمراء ليرتديها يوم العيد. قبل سنوات كان يحرص على خياطة جلباب جديد وعمامة قبل عيد الفطر، لكن بسبب تدهور الأحوال المعيشية في السنوات الأخيرة، اصبح يكتفي بشراء طاقية أو مركوب ويحضر صلاة العيد بنفس جلبابه القديم الذي يحرص على تركه للمناسبات المهمة.

كان الخوف قد تراجع، وبدت الحياة في القرية تستعيد صفائها، حتى ان شيخ علي فكر في مغادرة المكان، وترك الأمر لرجال الجيش الذين قد يصلون في اية لحظة، لكن احدا لم يظهر، لابد انهم لم يحملوا شكواه محمل الجد، او انهم مشغولون بمحاربة التمرد، فالبلد كله في حالة تمرد. فكر أن يترك لشيخ النور معالجة المشكلة خاصة انه يحتفظ بعلاقة طيبة مع صالحين وابنه. فجأة إنطلقت طلقة في الهواء ، جرى شيخ علي دون أن يشعر واحتمى خلف شيخ النور، ضحك شيخ النور وقال له، انت مش قلت مشيت الجهاد؟ ولا تكون في سفرك داك مشيت قعدت ليك في انداية شهرين وجيت شايل شهادة الجهاد! أو تكون مشيت عرّست وقضيت شهر العسل وجيت شايل شهادة الجهاد المدني!

همس شيخ علي لشيخ النور وهو يمد يده بمكبر الصوت ليعطيه لصالحين، قال شيخ النور انت مالك مستعجل؟ ما نواصل البرنامج بعد نفطر ونصلي المغرب، الناس صايمة خليها ترتاح شوية في النهار، ونواصل بالليل.

قال شيخ علي: يمكن الولد يقتنع ويجي يسلم سلاحه، نمشي نفطر في بيوتنا!
امسك العم صالحين بمكبر الصوت ونادى عثمان: رسلنا ليك أكل عشان تتسحر، أنشاء الله الاكل عجبك، امك رسلت ليك كسرة بالتمر، امك مسكينة رغم انها تعبانة وكت عرفتك جيت قامت عملت كسرة البلح عشان عارفاك تحبها يا ولدي. الولد الجاب السحور قال حسين ما رجع من الدهب، كان متعود يرجع يوم الخميس يمكن لقوا ليهم شيء وتأخروا. حسين مسكين الجو في الخلا صعب، حر بالنهار وبرد بالليل، قلت ليه اقعد جنبنا يا ولدي نحن كبرنا واخوك مافي، أزرع الحواشة بدل ساكت تتعب في الخلا وتجري جري الوحوش وفي النهاية غير رزقك ما بتحوش. ضحك وقال لي يا ابوي والله الكيزان ديل يقيفوا قدامك يحوشوا رزقك ذاته!

ضحك صالحين بصوت تردد في الساحة حتى توقف الرجل الذي كان يعظ الصبية، نظر حوله بعصبية كأن الضحكة العالية كانت تأكيدا لمزاعمه حول إتباع الشهوات الذي يجلب البلاء والغلاء، إستعاذ من الشيطان ثم نظر إلى السماء وواصل حديثه، قال صالحين: كلام حسين صحي، ديل ما خلوا قرش حايم في البلد والا استولوا عليه، بعيدن دخلوا الخوف في قلوب الناس، الناس ما عارفة بكرة حيحصل شنو، زمان الناس ما كانت تفكر في بكرة، الحياة سهلة، الاولاد في مدارسهم والبيمرض يمشي المستشفى يتعالج مافي زول بيقول ليك ادفع حق الحقنة قبل نطعنها ليك، وكت اهلنا في امبدة او كوستي يكون عندهم عرس نبيع لينا بهيمة عشان مصاريف السفر، هسع البهايم بعناهم كلهم عشان ناكل ونشرب وندفع حق الدواء. الاولاد الصغار كانوا

يشتغلوا في اجازة الصيف عشان يوفروا شوية قروش، يزرعوا ليهم شوية ويكة او بصل او يشتغلوا في المباني او يمشوا يشاركوا في حصاد التمر خاصة في المناطق الشمالية هناك معظم الشباب سافروا واغتربوا، وتلقاهم دايما فرحانين يمشوا يوم الخميس يفتشوا محلات الاعراس ، هسع كلهم في الخلا يفتشوا الدهب والناس كلها لو لقت فرصة تسافر لي اي بلد في الدنيا.الحرامية جوا قالوا دايرين نعمل دولة الدين، حرّم قدر الدين الفي ودروه. ضايقوا الناس في معيشتهم وما بيخلوك في حالك، ان قعدت في بيتك يجوك دايرين زكاة وضرائب، دايرين قروش للجهاد، ولو ما لقوا حاجة يسوقوا ولدك، ولو طلعت الشارع يقولو ليك إنت طابور خامس! يا يقبضوك ناس الجيش يودوك الحرب، لا ايدك لا كراعك تروح فيها.

عمتك السرة مشت كسلا، ولدهم برضو مشى الدهب مع حسين، بتها نفيسة جاها عريس، كوز غنيان، قالوا عنده مصنع، جة هنا أجّر الجروف وجاب مزارعين زرعوا الطماطم في الصيف، الطماطم شحنوه باللواري قالوا كسب منه ملايين، عمرنا ما شفنا طماطم يزرعوا في الصيف، قالوا لأ الدنيا اتطورت انتوا لسة من زمن القمح في الشتاء والويكة في الصيف، هسع في بذور يزرعوها في اي وقت تقوم وفي بيوت بلاستيك يزرعوا فيها اي حاجة في اي وقت. نفيسة رفضت قالت ما دايراه، زول متزوج وعنده اولاد رجال، قال لأمها بعرسها واخليها عندكم اذا هي ما دايرة تقعد مع زوجتي الكبيرة، البت رفضت. أريتك تجي تستقر يا عثمان معانا وتعرس البت دي، والله انا نفيسة دي بحبها زي بتي، الكوز مشى عرّس بت حاج فقير بت عذباء كان

راجلها مغترب ومات قالوا في حادث عربية في السعودية، مسكين يا دوب عقد عليها وقعد معاها اسبوعين وسافر لأن اجازته انتهت قال بيرجع بعد ستة شهور، بعد شهور من رجوعه جة الخبر قالوا مات. مساكين اولادنا، غربة وتعب وكمان موت بعيد من اهلهم. الكوز عمل حفلة كبيرة جاب الفنانين من كريمة والخرطوم، الناس دي ترقص تلاتة يوم، من سنين مافي زول عمل عرس كبير زي دة. بعدين جوا خلق كتيرة من جهات الخرطوم، يمكن زملائه في الشغل واصحابه، كلهم بدقون ويرقصوا، قلت لي شيخ النور الناس دي ما عندها خدمة قاعدين اسبوع ياكلوا ويشربوا ويرقصوا، شيخ النور قال لي قالوا الزول دة كوز كبير وغنيان، واصحابه اقلاهم وزير، والناس دي كلها هو طالبها قروش عشان كدة جو رقصوا! عشان ما يضايقهم في السداد، الظاهر عندهم تأجيل وقت السداد بالرقيص!

ضحك شيخ النور وقال: يا صالحين لزوم الفضائح شنو؟ الله يستر الظاهرحنخلص من موضوع ولدك دة وحنرافقه في الحراسة!

يا زول عرس عجيب تلاتة يوم فنان يطلع وفنان ينزل، شيء طمبور وشئ فرق موسيقية، تتذكر يا عثمان وكت كنت صغير قلت لي يا ابوي انا وكت اكبر عاوز ابقى فنان! قلت ليك يا ولدي اقرأ قرايتك وامسك شغلك بعد داك سوي الدايرو مافي زول يسألك. كنت تحب تعزف الصفّارة واولاد البلد كلهم كنت بتعمل ليهم صفارة البوص، بالليل انا متذكر كنت وكت ترقد في سريرك تصفر لغاية ما امك مرات تنهرك وتقول ليك حميتنا النوم، انا كنت بقول ليها خليه صوت الصفارة جميل، يساعد على النوم، يوم سقتك معاي في نفس

السنة الوديناك فيها المدرسة عشان نحضر عرس في أرقو، كان فنان طنبور جايي من كريمة، صوته جميل ، الطنبور عجبك، بعد الحفلة لقيتك مشيت وقفت مع الفنان ومسكت الطنبور تعاين فوقه. وكت رجعنا قلت لي انا داير طنبور، قلت ليك بالهزار اعمل واحد براك مش انت قاعد تعمل الصفارة بالبوص، بعد أيام لقيتك عملت واحد، بصحن وجلد عتود ونجرت عيدان خشب براك، بس اسلاك الوتر غلبتك لغاية لقيتها ليك بالصدفة عند واحد بيصلح الجزم في سوق السبت. بقيت تغني في المدرسة، يوم الجمعية الأدبية وفي حفلات المدرسة. وكت كبرت شوية بطلت الغنا بقيت تعزف بس للفنانين، ووكت مشيت المدرسة الثانوية اتعلمت الاكورديون.تتذكر يا عثمان مرة جيتنا من المدرسة خميس وجمعة وكان معاك اصحابك، مشيتو العصر بعد الغدا على البحر، عملتوا حفلة والبلد اتلمت كلها والناس انبسطت، واحد جاب ليه حمل ضبحه، وواحد مشى الجنائن جاب برتقال وجوافة والناس أكلت وشبعت، الدنيا كانت بخيرها قبل يجوا الجماعة ديل، قلبوا كل شيء لحرب وقلبوا حياة الناس فوق تحت.

رفع أحدهم أذان المغرب، توقف صالحين عن الكلام وبقي ممسكا بالميكرفون حتى ينتهي الأذان، ناداه شيخ النور لينضم لهم في الفطور. سأل صالحين: هل أرسلتم الاكل لي عثمان؟ أومأ حاج النور برأسه فجاء صالحين. تحلق الجميع حول صحون الاكل، أصر شيخ علي ان يأكل شيخ النور معه ومع بقية اعضاء اللجنة الشعبية.قال شيخ النور: يا زول خلينا في قراصتنا دي ما تخرب طبعنا باللحم والدجاج، بكرة المشكلة تنتهي ونرجع لقراصتنا!

لكن شيخ علي اصر عليه ان يأكل معهم، وقال النور: يعني انا بقيت حبيب الحكومة هسع لغاية المشكلة دي تخلص!

قال شيخ علي: يا النور انت حبيبنا من زمان، مش كنا عمرنا دة كله سوا، نمشي الاعراس سوا، وكت يموت زول نحن بالبنجهز القبر ونخدم الضيوف، نوزع الضيوف عشان ينوموا في البيوت ونأكّل دوابهم .

قال شيخ النور: ايوة لكن انت هسع بقيت حكومة ونحن ناس غلابة ما عندنا شيء، اصحابك بقوا ناس مهمين، وبقيت غنيان، زمن الفاقة كنا رفاقة زي ما بيقولو، رفقة فقر ساكت. هسع لو ما عرفت حقك كم ما بتقعد مع اي زول! كتر خيره ولد صالحين لو ما كان جة بالبندقية ما كنا بنشوفك ونقعد معاك يومين!

ضحك شيخ علي وقال: لا والله مشاغل بس، البلد في حالة حرب وكلما نقول الحمدلله عملوا اتفاق والدنيا حتروق، تقوم الحرب في جهة ثانية.

قال النور: البلد دي غلبتكم يا شيخ علي، اعملوا نتخابات وسلموها والا يحيجي يوم بعد تقتنعوا تسلموها ما تلقو شيء تسلموه.

يا النور دايرين ترجعوا تاني للفوضى بتاعة الاحزاب؟ نحن ناس عمل، وعدناكم نبني الخزان وبنيناه، وعدناكم بالطريق وعملناه، ولسة بكرة الكهربا تغرق البلد دي.

قال النور: والفايدة ايه لو كان بني آدم نفسه انتهى، بعدين الخزان دة جبت قروشه من وين؟ مش ديون حيدفعها اولاد اولادنا ولا بنيتوه من قروش البترول الما معروف مشت وين؟

لم يرد شيخ علي، حشر قطعة لحم في فمه وشرب جرعة ماء. واصل النور: قبل عشرين سنة ارسلتم شيخ الطيب لمغتربين، قلتوا ليهم ادونا القروش اللميتوها لمحطة الكهرباء نحن بنعمل بيها الخزان! لأن محطة كهرباء بدون خط سكة حديد يجيب ليها الديزل ما بتنفع وشغلها ما حيستمر، المغتربين المساكين صدقوا وادوكم القروش ركبتوها عربات وصرفتوها مرتبات وحوافز وحفلات وضع حجر اساس، والخزان داير ليه حجر اساس، هو جبل تمشي تخت فوقه حجر وتعمل حفلة؟ وفي النهاية وكت المغتربين قالوا قروشنا وين، جبتو الحساب طلعتوهم مطلوبين، ولا في متر كهرباء طلع ولا في خزان اتبنى.

قال شيخ علي: ناس المنطقة رفضوا نبني الخزان، نعمل ايه؟

قال النور: وليه تغرق الناس ونخلهم عشان تعمل ليهم كهرباء؟ زول غرقان هو ونخله يودي الكهرباء وين؟ وقت الناس احتجت رسلتوا الصعاليك ضربوهم بالنار، يعني انت داير تصلح أحوالي وتعمل لي تنمية زي ما بتقولو وتقتلني في نفس الوقت دي يفهموها كيف؟ بعدين انت قلت انا اكتشفت البترول طيب ما تعمل محطة كهرباء بالجاز، الدنيا دي كلها منورة بالجاز، السعودية دي فيها بحر ولا خزانات، ما مشينا الحج الدنيا دي كلها منورة والكهربا ما قطعت دقيقة واحدة لغاية ما رجعنا بلدنا! لأنهم بيخدموا بلدهم باخلاص ربنا مبارك ليهم الرزق، انت تبيع الجاز بي مية، تخت خمسة وتسعين في جيبك وتجدع الخمسة للكلاب البتهتف ليك وتغشك انك رمز البلد

وانك رجعت الدين، متين نحن كنا كفار؟ ولو حالنا قبل انتو تجوا الحكم داك كان كفر، حرّم الكفر اخير من دينكم دة!

كان شيخ علي مشغولا بالأكل نظر إلى شيخ النور وهو يتحدث بدهشة وكأنه لا يعرفه أو لا يعرف ما الذي يقوله، أشار إلى صينية الأكل و حين لاحظ ان شيخ النور توقف عن الاكل صاح فيه، كل يا شيخ النور! ذوق قليلا من هذا الارز باللبن!

مد شيخ النور يده رافضا الملعقة التي مد بها شيخ علي، أمسك بقطعة من خبز السناسن ليأكل بها الارز باللبن وقال: زي ما بتتذكرونا في الرز باللبن والضلع، اتذكرونا كمان في الأكل الكبير! في الأراضي والسكر!

قال شيخ علي: خليك قريب يا شيخ النور، لو جيت معانا تلقى الواطة والضلع، تلقى الخير ونسوقك معانا بعدين الجنة!

ضحك شيخ النور وقال: زي ما قال المرحوم عبد الرحيم : الله لا يلمني معاكم في جنة يديني ناري براي! وين في جنة للحرامية يا شيخ علي؟ لو داير يا شيخ علي تخلي ذكرى طيبة في البلد دي حاولوا ساعدوا شيخ الأمين يسدد ديونه للبنك، عشان المشروع يشتغل السنة دي، الناس حتجوع في البلد دي لو المشروع رقد!

قال شيخ علي: خلصنا من موضوع ولد صالحين دة وخلي موضوع المشروع عليّ، نشرب الشاي ونقوم.

أمسك صالحين مرة اخرى بمكبر الصوت وسأل عثمان: أكلت كويس يا ولدي؟ مسكين انت تكون راجع من الجيش تعبان واصلك انت زول ضعيف

من وانت صغير ما تاكل كتير، امك كانت دائما تقول الولد دة أدوه عين من هو صغير، دايما مريض، ودينك وانت صغير قبل تدخل المدرسة للدكتور، كان دائما تجيك الحمى وانت صغير، وما عندك رغبة في الاكل، الدكتور كشف عليك، فتح خشمك وعاين جوة حلقك وقال الولد دة عنده إلتهاب لوز، أداك حقنة بنسلين وقال لينا احسن نشيل اللوز لأن الالتهاب لو اتكرر بيعمل ليه مشاكل في الكلى.أداك حقنة بنسلين بقيت كويس، بعد كملت العلاج، بأيام تاني مرضت بالالتهاب، الدكتور رسلنا المستشفى مشينا عملنا ليك العملية. الدنيا بخيرها والعلاج مجان، الدكتور قال لينا الولد بعد العملية صحته حتتصلح ووزنه حيزيد لأن التهاب اللوز بيخلي المريض ما عنده رغبة في الاكل. لكن نفس حالك استمر يا ولدي بعد العملية، تاكل شوية وتشبع. أمك مشت للشيخ جابت المحاية لكن انت قلت ما بتشربها، أمك بقت تخت منها شوية شوية مع شاي اللبن، كنت تحب تشرب شاي المغرب من انت صغير، في الشتاء كانت امك تعمل الزلابية في الصباح، وناكل الباقي مع شاي المغرب، في الصباح كنا نقعد في الدونكا جنب أمك، المطبخ دافئ، انت كنت بتحب ريحة دخان عبج النخيل، أمك تقول ليك الدخان دة ما كويس مع إلتهابات اللوز، انت تقول ليها: يا أمي اللوز ما خلاص شلناها! كنا نقعد في الواطة فوق حصير السعف حوالين امك، أمك تعوس كسرة الفطور في الدوكة بنار العبج وجريد النخيل، الدونكا دافئ رغم برد أمشير ، الدخان بيمرق من فوق، بيوتنا دي رغم انها مبنية بالجالوص لكن سمحة لأن السقف المرفوع بالحجر فوق الحائط بيجدد الهواء ويطلع الدخان للخارج،

هسع ناس الحكومة بقوا يبنوا بيوت بالطوب الأحمر ويعملوا السقوف بالزنك والمواسير، بيوت زي دي نار العبج ما تنفع معاها، الا بوابير الغاز والجاز الحديثة، انت كنت بتحب ريحة دخان نار العبج، وبتساعد امك تمشي تجيب الجريد والعبج الناشف، في الصيف وانت صغير كنت بتساعد أمك تصلح البيت، تجيب معاها الرمل الأحمر من جنب البحر للحوش، وتلونوا حيطان البيت بالجير الابيض والملون . الدنيا كانت بخيرها. انت كنت هميم اكتر من حسين، كنت بتحلب معاي الماعز، وبتساعدني في حلب البقرة، تتذكر وكت العقرب لدغتك وانت بتحلب معاي البقرة؟ أمك فصدت ليك مكان اللدغة بالموس وعملت ليك شاي تقيل، الطراش منعك تنوم الليل كله. تاني يوم وكت مشيت احلب البقرة لقيتك وراي! قلت ليك انت ما بتتوب يا ولدي؟ بعد داك نادينا الجيران ونضفنا مراح البقر وبقينا نخزن القصب الناشف بعيد شوية عشان ما يلم لينا العقارب، الدنيا كانت بخيرها، هسع الناس تجري جري الوحوش وزي ما قال حسين يقيفوا ناس الحكومة قدامك يحوشوا رزقك ذاته، لكن الله كريم والظالم ليه يوم يا ولدي. هسع انت ذنبك ايه تمشي تحارب والجماعة قاعدين هنا كضب وسرقة وعرس، يولعوا النيران ويرسلوا اولاد المساكين يتحرقوا فيها. صمت صالحين قليلا، وشرب من كوب القهوة الذي وضعه أحدهم في يده دون أن يشعر: يا عثمان كتابي الأول بتاعك لسة انا محتفظ بيه، أوراقه اتقطعت لكن كامل، تتذكر يوم ادوك الكتاب، كنت فرحان يا عثمان كأنك لقيت كنز، الليل كله تقرأ: الولد ولد البلد والبنت بنت البلد، كنت دائما تنوم بدري بعد تتعشى باللبن، اليوم داك انت صاحي

الليل كله، وكت صحيت لصلاة الصبح لقيتك قاعد في عنقريبك والفانوس جنبك وانت تقرأ، قلت ليك يا ولدي نوم والصباح رباح، بكرة الجمعة ممكن تقرأ اليوم كله، وضوء الفانوس دة يمكن يأذي عيونك لو قرأت بيه لفترة طويلة. يا سلام على سحر الكتاب يا ولدي، انا ذاتي مريت بالمرحلة دي في الفترة القصيرة المشيت فيها المدرسة قبل وفاة أبوي.

يا شيخ النور لو الزول دة ما جة سلّم، أنا حأتصل بناس الجيش استعجلهم، هم اصلا جايين لكن قالوا امس كان عندهم احتفال في الحامية.

رد شيخ النور: احتفال شنو، إنتصروا حرروا ليهم بلد من اهلها؟ نحن جيشنا مسكين محلي، ما بيحارب الا ناس البلد! الجيوش في الدنيا كلها واقفة في الحدود، جيشنا في نص البلد، وكل ضابط شايل بيانه الاول في جيبه، سبحان الله ناس نعلمهم وندربهم بقروشنا، ووكت يرفعوا البندقية يوجهوها لي ضهرنا!

قال شيخ علي: ما سمعت خطاب الريس امس؟ أمس كان عيد الجيش؟

ضحك شيخ النور وقال: ودة عيد جديد كمان؟ الناس بقت تسمع سيرة عيد تخاف، تشيل هم ملابس العيال الجديدة. عبد الرزاق ولد حسن نوري أخوه المغترب رسل ليه القروش عشان يمشي الخرطوم يقرأ الجامعة. أول مرة يمشي الخرطوم، لقى زملاه في الداخلية ماشين حفلة في رأس السنة، ساقوه معاهم، شاف البنات السمحات والرقيص والاكل النضيف، إنبسط مسك التليفون ضرب لاخوه الكبير علي حسن هنا، اخوه مسكين يا دوب رجع من الحواشة وراقد في العنقريب فتران منتظر العشاء، بين صاحي ونايم بالتعب.

أخوه ضرب ليه، قايل اخوه داير يقول ليهم انا وصلت بالسلامة، الولد في زحمة الحفلة ضارب عشان يقول كل عام وانتم بخير! علي اتخلع، كورك فوقه، في شنو؟ قال ليه الليلة رأس السنة الجديدة! قال ليه راس ولا كراع خلعتنا قايلين العيد جة تاني ونبقى تاني في هم ملابس العيال! وكت عبد الرزاق جة الاجازة، جة المسيد سلّم علينا، واتعشى معانا، قلت ليه انت ضربت لعلي تبارك ليه السنة الجديدة؟ ضحك وقال لي انا غلطان، علي حياته كلها الحواشة والبقرة والحمار، ما بيكون عارف دي ذاتها سنة كم! وما بيفرز سنة ميلادية من سنة هجرية!

كان السوق في ساحة الانقلاب قد امتلأ بالناس، بعض رجال الشرطة الشعبية ينتشرون في السوق لمراقبة الناس واستعراض قوة السلطة رغم التمرد الذي وصل إلى القرية. كان الشاويس عبدالدائم قائد الشرطة الشعبية يعبر مثل الأسد وسط السوق، وهو يطمئن الناس الا يخافوا وأن كل شيء تحت السيطرة وسيقبض على الولد المتمرد، ويحاكم محاكمة عسكرية بسبب اخلاله بأمن المواطن وتمرده على الدولة. كان عبد الدائم يبدو وكأن بطنة الضخمة التي تتدلى أمامه، هي التي تقوده وليست البندقية الضخمة التي يعلقها على كتفه، وكان يبدو مع أقدامه الضخمة التي تغوص في الأرض أثناء المشي، تقتلع التراب وتنثره في الهواء، مثل جرار زراعي يقوم بحرث الارض استعدادا لموسم الشتاء. في اثناء عبوره كان يتأكد أن كل النسوة يرتدين ملابس محتشمة ، وأن الأمن مستتب ولا يوجد أية تجمهر ضد السلطة، يعلن من داخل موكب الغبار الذي يرافقه، أن الأمن مستتب وأن رجال الجيش

الذين يحمون الوطن هم في الطريق للقبض على المتمرد الذي سيندم على اليوم الذي قرر فيه أن يتمرد على السلطة الشرعية. يحب الشاويس عبد الدائم استخدام كلمة السلطة الشرعية رغم أنه قبل سنوات لم يكن يعرف ماذا تعني بالضبط لكنه لاحظ أن رؤسائه يستخدمونها كثيرا، فعرف أنها عبارة مهمة ان لم يستخدمها ربما يطرد من الخدمة أو يفقد جزءا من أجره او لايحصل في أفضل الأحوال على ترقية مستحقة، كان يظن في البداية حين يفكر في قصة السلطة الشرعية، أن الأمر ربما يتعلق بشروع في الزنا، فهو يفهم أن الزوجة الشرعية هي التي يتزوجها على الكتاب والسنة، وغير الشرعية هي التي يتزوجها حين يغريه ابليس بمفاتن الخروج على الشرعية، فزوجته التي ظل يعاشرها منذ ربع قرن، فقدت تقريبا كل خصائصها المهمة كأنثى، وأصبحت أكثر شبها به، مما يسهّل مهمة إبليس كلما ذهب هو في مهمة ما إلى المدينة. في المرة الأخيرة حين ذهب إلى المدينة لاستلام بعض الاسلحة لوحدته، قرر قضاء بضعة ايام هناك، مدعيا أنه مصاب بمرض في معدته وسيقابل الطبيب قبل عودته للاطمئنان على صحته، بدلا من طبيب البطن التقى طبيب القلب، عاهرة أجنبية رائعة الجمال، شعر أنه سبق ابليس نفسه في اقناع نفسه بمفاتن الحب غير الشرعي، لم يكن محتاجا لخدمات إبليس تلك المرة، قاد المبادرة بنفسه، حتى سقط في فخ خيانة زوجية أقنع نفسه أنها لن تنتقص شيئا من حبه الازلي لزوجته. لقد كان وفيا دائما لأم أولاده، ولن ينقص الوفاء شيئا أن يسري على نفسه قليلا ويعيد شحن بطاريات الصبر لربع قرن جديد، سيصب ذلك في مجرى الوفاء نفسه، الوفاء

مثله مثل سيارة كومر قديمة، يحتاج للصيانة، يحتاج لتغيير الزيت، يحتاج للوقود! وفاء مدى الحياة، دون اصلاحات سيصبح مجرد غباء مزمن! سيصبح حكما بالسجن مع الأشغال الشاقة المؤبدة! أغراه صديق يعمل تاجرا كان يساعده هو احيانا حين يجد بعض المصاعب في استخراج ترخيص العمل، أو تجديد رخصة قيادته، يتاجر الصديق احيانا في البضائع المهربة وحين يريد نقلها للاسواق البعيدة كان يصحب الشاويس عبد الدائم معه حتى لا يتعرض لأية مضايقات من أية جهة! يكون ذلك العمل مثل نزهة سعيدة للشاويس عبد الدائم، يأكل طوال اليوم على حساب صديقه المهرب، ويحصل على مبلغ من المال في نهاية اليوم. كل مهمته هو الجلوس في عربة النقل الصغيرة فوق البضاعة المهرّبة، وبالطبع فوجوده فوق البضاعة كفيل بإبعاد الفضوليين من رجال الشرطة الذين لا يريدون تطبيق القانون، بل استغلال وجود ثغرة ما للحصول على مبلغ من المال! لا يوجد قانون يمنع مرافقة صديق في رحلة عمل. كان يشعر أحيانا بوخزة ضمير صغيرة لجلوسه في حراسة البضاعة المهربة بملابسه العسكرية الرسمية، لكنه كان يقوم بقمع وخزة ضميره بسرعة حتى لا تتفاقم وتنغّص عليه متعة الرحلة مع الصديق المهرب. كان يقول لنفسه مطمئنا، كل أهل النظام يسرقون، رغم أنهم من يجب أن يقوم بحماية الوطن وثرواته، لكنهم أول من يبادر بالسرقة. وهذا الرجل لا يسرق شيئا، إنه فقط يتجاهل استخراج بعض الاوراق ويتجاهل دفع بعض الرسوم. حتى لو قام بدفع هذه الرسوم من يضمن أنها ستصل في النهاية لمستحقيها، ان كان البعض يقولون أن اهل النظام يسرقون حتى

أموال الزكاة! يجد لصديقه العذر خاصة حين يجلسان بعد توزيع البضاعة المهربة في ركن مطعم مزدحم ويتناولان وجبة دسمة من السمك ولحم الضأن. لا يوجد قانون يمنع مشاركة صديق الأكل، ما دام الأكل من لحم حلال. يقال أن بعض الجزارين الفقراء يذبحون الكلاب ويدسون لحمها بين أكوام اللحم الحلال! ربما كان ذلك هو السبب الذي يجعل مواطنا ما حين تستوقفه لتسأله عن رخصة قيادته او بسبب إرتكابه مخالفة ما، ينبح في وجهك غاضبا مثل كلب! يجب وضع قوانين تمنع النباح في وجه رجال الشرطة الشعبية!

أغراه الصديق و دفع له قيمة الحب ! لم يدفع شيئا بالتالي لن يشعر بالذنب! سيصعب اثبات ارتكابه لأية ذنب حين لا يجب أن يدفع شيئا! قضى وقتا طويلا يخلع ملابسه العسكرية الكاملة، خلع القميص الضخم الذي يشبه شراع مركب، والبنطال الأخضر الضخم، تجرأت العاهرة لتسأله: كم مترا من القماش تكلف هذا البنطال؟ تجاهل الشاويس السؤال، لم يجد من اللائق ان يعطي مقاسات ملابسه لعاهرة عابرة في حياته! كما أنه كرجل شهم مسئول عن حفظ النظام في قرية كبيرة تقع على شاطئ النيل، لم يكن معتادا على إفشاء أسراره للنساء الثرثارات اللائي كان يلتقيهن يوم السوق، ويشتري منهن تراب العطرون الذي يستخدمه كدواء لعسر الهضم الذي يصيبه دائما كلما إستجاب لاحدى دعوات صديقه التهريبية. كان يقبل بتحفظ أحيانا دعوة إحدى هؤلاء النسوة اللائي يجلسن في حلقة دائرية لشرب كوب من الشاي، كان ينظر حوله جيدا في البداية حتى يتأكد أنه لا يوجد أحد من رجال اللجنة

الشعبية أو أحد أفراد الشرطة الذين ربما يشعرون بالاحراج من منظر جلوس قائدهم لاحتساء الشاي وسط نساء السوق، كان يتأكد كل بضع دقائق أنه يحافظ على وقار السلطة أثناء جلوسه أرضا، كان يحب شراب الشاي ولا يرفض أية دعوة لشرابه، وكان لا يقبل أن يشرب أحدهم الشاي وهو واقف، لديه اعتقاد راسخ ان من يشرب الشاي وهو واقف كمن يشرب ماء، وأن الشاي لن يصل تأثيره إلى الرأس في هذه الحالة.

أنشغل بخلع البوت الضخم الذي تفوح منه رائحة نتنة من قدمه، الملابس مكومة في الارض الان مثل كومة غائط عملاق، حين قفز إلى فضاء الحب كان قد نسي خلع طاقيته العسكرية، لاحظ أن وجه المرأة كان يمتلئ رعبا كلما اقترب منها بوجهه اثناء ممارسة الحب، حين سألها بعد أن انتهى كل شيء، قالت أن القبعة العسكرية كلما اقتربت من وجهها كانت تظن أن هناك هجوما من رجال الشرطة وسيلقى القبض عليها وتجلد في الأسواق!

يعبر الشاويس عبد الدائم مثل أسد يمشي في موكب من الغبار في قلب السوق يطمئن الناس ان الولد المتمرد سيلقي رجال الجيش القبض عليه ويعاد إلى الحرب التي هرب منها، يقول أن مثل هذا المتمرد لن يعود من الحرب مرة اخرى، لأنهم سيضعونه في المرة القادمة في مقدمة القوة، لينظف المنطقة التي يعبرها الجيش من الألغام! هكذا يفعلون مع المتمردين والهاربين من الخدمة، ولن تتاح له فرص اخرى للتمرد، اضافة للعقوبة العسكرية التي ستنزل به على تمرده والتي قد تصل إلى الاعدام حتى لا يجرؤ على تهديد الناس الآمنين مرة اخرى!

يعبر الشاويس عبد الدائم بقوة إعصارية في السوق ويطمئن الناس أنّ الأمن مستتب ولا داعي للخوف، وفجأة تنطلق طلقة رصاص في الهواء، يركض الشاويس عبد الدائم مثل الإعصار ويتبخر في لمح البصر داخل حقول المريق، تاركا السوق وناسه لمصيرهم المحتوم! اقدامه الضخمة التي كانت أثناء عبوره الفخيم، تغوص في الارض لتقتلع التراب مثل جرار، اصبحت خفيفة تسبح في الهواء اثناء هروبه، يعود بعد قليل حين يتضح انه لاشئ هناك، وانها مجرد طلقة طائشة في الهواء خرجت خطأ من بندقية المتمرد، يعود ليواصل طوافه الغباري في قلب السوق حتى يطمئن الناس أن الأمن مستتب وأن الشرطة في خدمة الشعب.

وحتى يعوّض صدمة هروبه من ميدان المعركة، يقوم الشاويس عبد الدائم بتشديد العقوبة: سأطلب له حكم الاعدام بسبب ترويع وتهديد حياة المدنيين الابرياء وتعريضهم للخطر! بحكم معرفتي بالقضية ربما يتم إستدعائي كممثل للاتهام أمام المحكمة العسكرية التي ستحاكمه بتهمة الهروب من الخدمة والتمرد ضد السلطة الشرعية!

لكن إمرأة مسنة تبيع الليمون والفول السوداني تجلس من خلف بضاعتها التي تضعها على الارض فوق جوال من الخيش قالت تذّكر الشاويس عبد الدائم: كيف تعدمه وهو قريب لزوجتك؟

توقف الشاويس عبد الدائم كأنه فعلا استيقظ على حقيقة لم يكن منتبها لها، واصلت المرأة، صالحين قريب لوالدة زوجتك، هل نسيت؟

قال الشاويس عبد الدائم: معك حق، لقد سمعت ذلك، لابد أن هناك خطأ ما، لا يمكن ان يتمرد مثله، سأطالب بتخفيف العقوبة، الشيطان يغوي حتى الأنبياء على ارتكاب الخطيئة، لا احتاج لمشاكل مع اهل زوجتي، كما انهم كلهم اناس طيبون، لم تحدث لي اية مشكلة معهم باستثناء مرة واحدة غضبت فيها زوجتى حين عدت إلى البيت قبل سنوات، كنت مرهقا قليلا وقبلت دعوة صديق لشرب عدة كؤوس من شراب جيد، لم اكن اعمل انذاك في الشرطة الشعبية، كنت مجرد مزارع واعمل في فترة الصيف سائقا للجرارات الزراعية. حين يقبل المزارع دعوة شراب وعشاء جيد من أحدهم لا يعتبر ذلك رشوة! المزارع شخص طيب وكريم لكنه لا يملك سلطة، لكن ان قبلت ذلك الان سيكون ذلك قبولا للرشوة، رغم انني في الواقع لا اجد فرقا كبيرا بين المزارع ورجل الشرطة، رجل الشرطة يملك ايضا سلطة قليلة، يكون المزارع اكثر سلطة منه اذا كان يمتلك بعض المال خاصة بعد موسم زراعي ناجح، لكن شرطي مفلس يعتمد على راتب الحكومة تكون سلطته رمزية، يضطر لقبول الرشوة في بعض الاحيان باعتبارها هدية، الشعب هو من يدفع مرتبي ومن حق هذا الشعب ان يكمل دفع مرتبي نقدا حين اشكو ان المرتب الذي يدفعه الشعب لا يفي بكل متطلبات حياتي! لأبق على قيد الحياة وأواصل خدمة الشعب وحمايته، كيف سأحمي الشعب وأخدمه حين أكون أنا نفسي جائعا أو لا أستطيع علاج إبني المريض! الأمر هو هكذا لا توجد رشوة، يدفع لي الناس بقية مرتبي! دون المرور بروتين زيادة المرتب والعلاوات وغير ذلك من التعقيدات! انا اعمل وسط اهلي واصدقائي لماذا يجب ان اتهم اهلي

واصدقائي بأنهم يحبون رشوة الناس! الحقيقة انهم يقدمون الهدايا، الهدايا تقبل دائما، من العيب رفض هدية من شخص لطيف، النبي قبل الهدية، ماذا اساوي انا؟ أنا مجرد شخص عادي! لا أتوقع أن ألتقي أية ملاك في حياتي سوى ملك الموت! اذا كان هنالك دليل واحد ان الهدية هي رشوة سأرفضها فورا واحاسب من يقدمها، لا يجب اخذ الناس بالشبهات، هناك قانون يجب احترامه والا غرقنا في الفوضى!

حين تأخرت زوجتي في اعداد العشاء ضربتها على وجهها، زوجتى إمرأة ممتازة وتحب خدمة الناس، لديها مشكلة واحدة فقط تسبب لي الضيق خاصة حين اكون متعجلا، انني موظف رسمي وقتي يساوي الكثير، رغم انني قد استغرق في النوم احيانا في مكتبي بسبب الحر ووجبة الفول بزيت السمسم التي تجعل الانسان يشعر كأنه ابتلع مخدرا قويا، لو كنت طبيبا جيدا لاستخدمت الفول وزيت السمسم بدل المخدر ، في بعض الاحيان يتوقف اجراء العمليات الجراحية بسبب عدم وجود مخدر! مشكلة زوجتي انها تؤدي اية عمل بمهل شديد! حتى حين يكاد العالم كله ينهار تجدها تعمل بهدوء وبطء شديد، حين يكون لدينا موعد مهم اقوم بخداعها حتى نصل في وقت مناسب، اقول لها سنذهب في الساعة العاشرة إلى الطبيب في حين يكون موعدنا منتصف النهار، حتى ترتدي ثوبها وحذائها تستغرق عدة ساعات! تبدأ في اعداد الافطار صباحا مجرد ان تفرغ من عمل شاي الصباح وحتى ينتصف النهار يكون طعام الافطار لازال في النار الهادئة التي تشعلها.

حتى النار التي تشعلها تنتقل لها عدوى الهدوء والتمهل! فيبق الأكل فوقها لساعات دون أن ينضج!

انتبهت حين ضربتها، لم اكن اعرف ما الذي فعلته وفوجئت انها تركت البيت، حتى حين قررت ترك البيت استغرقت عدة ساعات حتى تنفذ قرارها! حتى حين غضبت احتاجت وقتا ليبدو الغضب في وجهها، في البداية بعد الضربة مباشرة ظلت واقفة في مكانها وكأن شيئا لم يحدث ثم بدات تستوعب ما حدث ببطء. لكن كل شيء تم اصلاحه. اشتريت لها حذاء جديدا غاليا وذهبت لزيارتهم، كان الصلح مكلفا، الحذاء الجيد يكلف مالا كثيرا. استقبلني والد زوجتى استقبالا فاترا، وقال لي انه لا يرغب في زوج لابنته يعود مخمورا كل يوم، ويقوم بضربها! شرحت له انني لا اشرب كثيرا وفي العادة اقبل فقط دعوات بعض الاصدقاء، لكنني لا احضر شرابا إلى البيت، المرتب قليل لا يكفي حتى للاشياء المهمة فكيف اصرف جزءا منه على البهجة بينما يشعر أطفالي بالحزن! اما ان نبتهج جميعا أو اشاطرهم الحزن! لو أردت أن أبتهج أنا وأولادي بهجة جماعية فسيكلف ذلك كثيرا. لا يوجد خصم حين تشتري خمرا للعائلة كلها. لكنني أفرح أحيانا على حساب آخرين ممن يتطوعون لإدخال بعض البهجة إلى قلب شرطي مسكين يطبق القانون حتى أثناء نومه!

قال رجل سمع كلام المرأة، هل انت متأكدة أنّ صالحين قريب لزوجة المساعد عبد الدائم، اعتقد انك تقصدين الرقيب سليمان الذي نقل إلى المدينة بعد مشاجرة مع بعض النساء يوم السوق، انه هو قريب زوجة العم صالحين!

استعاد الشاويس عبدالدائم سلطته وقوته الغبارية حين سمع التصحيح وأعلن: لقد قلت ذلك، لا يمكن ان يكون مثل هذا المتمرد قريبا لزوجتى، اعرف اسرتهم جيدا كلهم اناس اتقياء، واحد منهم فقط اتهم مرة بسرقة مال مخصص لصيانة مسجد تم جمعه من بعض المحسنين خارج الوطن! وتورط قريب آخر لزوجتي في قضية سلع مهربة، انه تاجر ومن حقه أن يتاجر في كل شيء، لم يفكر في التهرب من الضرائب لكن الامور سارت هكذا، لا استطيع لومه ما دام يتاجر في اشياء غير ممنوعة، اعترف لي انه قام مرة واحدة بتهريب خمور جيدة من احدى دول الجوار، اقول خمورا جيدة لأنني تذوقتها، انها تستحق بالفعل المخاطرة بتهريبها، لا يوجد في الدنيا افضل من شراب جيد، وإمرأة جميلة، المرأة الجميلة قد تسلبك عقلك ومالك ، لكن الشراب الجيد يسلبك عقلك فقط، ولماذا ستحتاج إلى عقل لا هم له سوى التفكير واسترجاع المصائب وتذكيرك في كل لحظة أنك لا تملك شيئا ويجب ان تتصرف بسرعة، لا احب أن احمل رأسا فوق جسدي يقوم في كل لحظة بتنغيص حياتي وارسالي للبحث عن حلول لكل مشاكل العالم! الشراب الجيد يبقى دائما في رأسك، حتى ان كان مهرّبا، لا يستطيع رأس الانسان التمييز بين شراب مهرّب وشراب دفعت عليه ضرائب!

سأطلب تشديد العقوبة لا يمكنني التسامح مع ترويع الناس الآمنين! في بعض البلاد اذا قمت بترويع الناس مستخدما سلاحا ناريا يقومون بقطع يدك اليمنى ورجلك اليسرى، يا للكارثة لن تستطيع الزواج أبدا بعد ذلك، لو كنت مكانه لقلت انني ذاهب إلى صيد الغزلان بهذا السلاح وليس ترويع الآمنين!

قال شخص لم يدقق الشاويس عبدالدائم في ملامحه بسبب الغبار: لكنه يقول انه لا يريد سوءا بأهل القرية بالعكس هو يريد انقاذهم من ثلة اللصوص التي تتحكم في حياتهم!

ان كان يملك دليلا على ان احدهم لص يجب ان يذهب إلى المحكمة، اذا حمل كل شخص السلاح لتصحيح الاوضاع ستتحول البلد إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف!

لكن كيف يشكو الحكومة إلى الحكومة؟

ضحك الشاويس عبدالدائم ونظر حواليه بحذر قبل أن يقول:

أخشى أنك محق، القاضي تعينه الحكومة وتعطيه مرتبه! بالتالي هو موظف حكومي، بعض القضاة لديهم ضمير ويحبون مهنتهم، بعض القضاة يحبون صيد الغزلان، ذهبت مرة في رحلة صيد مع عدد من رجال الشرطة والقضاة، كان ذلك في عيد الفطر، القاضي لا ينس ابدا أنه قاض، حين يرى أحدهم غزالا شاردا جاء ليرد عين الماء التي كمنا بجانبها، كان يأمر أحد رجال الشرطة بإطلاق النار على الغزال! لا يستطيع الشرطي ان يطلق النار بدون ان يصدر القاضي حكمه بإعدام الغزال! الاحكام في رحلات الصيد كلها بالاعدام رميا بالرصاص! بعض الغزلان تتمكن من الفرار رغم ان رجل الشرطة يكون مدربا جيدا على اصابة الهدف، حين يهرب الغزال يشعر القاضي بالحنق! حتى في الصحراء يوجد من لا يمتثل لأحكام القانون!

يمضي الرقيب عبد الدائم وسط الحشود مثل أسد بشري بجسمه الضخم وملابسه الرسمية التي تكاد تتمزق مع كل شهيق وزفير، يطمئن الرعية أن

الأمن مستتب، وأن قوة من الجيش ستصل في أي لحظة للقبض على المتمرد ومحاكمته، يعبر أمام حلقة المداحين بالدف، منذ طفولته وهو يحب المناسبات الدينية، البعض كانوا يقصدون هذه المناسبات لاشباع نهمهم للحم والأكل الجيد، والبعض لاشباع ميلهم للرقص الجماعي في حلقات المديح النبوي، حين يندمج الراقصون مع ضربات الدف ومع الغبار ولا يكاد يرى او يسمع شيء سوى: الله حي .. الله حي، كان الرقيب عبد الدائم يذهب في سنواته الاولى لاشباع نهمه للأكل، اللحم في البيت لم يكن كثيرا، يأكل كثيرا من اللحم في عيد الاضحى، وفي مناسبات الزواج التي يكون معظمها في موسم الصيف، حين كبر قليلا اصبح يقصد المناسبات الدينية لاشباع شهوتي البطن والاذن! فقد اصبح محبا للمديح وللرقص بجانب حبه للحم. حين عبر بجانب حلقة المداحين فكر ان ينضم لها ويشارك في الرقص، رغم عدم وجود لحم في المكان، ورغم خوفه من ان مشاركته قد تنتقص من هيبة السلطة. لم يفهم لم شعر أنه سيكون سعيدا جدا ان شارك بالرقص في الحلقة بزيه الرسمي! هل سيتحدث أحدهم عن الشرطة الراقصة، لكنه لن يتخلى عن أي من واجباته في حفظ الأمن حتى في ذروة إستغراقه في الرقص، الرقص في حلقة مديح يخلو من مجون الرقص في مناسبات الأفراح، التي قد ينتقص الرقص فيها مع السكارى من هيبة الشرطي! يتعين على الشرطي الجيد القبض على السكارى لمخالفتهم القانون بدلا من الرقص معهم، لكنه برغم ذلك رقص عدة مرات مع السكارى، الناس يعيشون في ظروف صعبة، لا يوجد غذاء أو دواء، حين تتاح لهم فرص للفرح يجب أن يأخذ القانون عطلة

قصيرة لن يضار منها أحد، طالما أن هؤلاء السكارى الطيبون لا يفعلون شيئا سوى البهجة. يكون الواحد منهم مثقلا بهمومه ومشاكله، لكنه حين يعاقر الخمر، يشرع في الضحك حتى قبل أن يستمع إلى بقية النكتة الرسمية التي يحكيها الشاويش عبد الدائم لاصدقائه السكارى. يستغرق السكارى في الضحك حتى حين توجه لهم الشتم! مثل هؤلاء البشر المتسامحين يساعدون العدالة، يشيعون البهجة ويجعلون الناس ينسون مصائبهم اليومية. يغنون ويرقصون، لا يسرقون شيئا ولا يتلفون أي شيء، من يساعد العدالة لا يجب تجريمه لمجرد أنه شرب شيئا ممنوعا بحكم القانون!

اقتحم الشاويش عبد الدائم حلقة المديح مثل بلدوزر وبدأ في الرقص، يدور حول نفسه وحول الحلقة في الوقت نفسه، مثل البندول، شعر أن ضربات الدف القوية كانت تتبعه، تتسارع وتيرتها، مع ارتفاع دقات قلبه، وتبطئ قليلا حين يطفو بجسده فوق الغبار كأنه سيصعد إلى السماء، شعر بعد قليل كأنه يرقص بدون جسده، لم يصدق أن البطن الضخمة لا تزال تتبعه وهو يرقص مثل عصفور، فجأة شعر أنه يمتلئ حتى قاع جسده بضربات الدف وبالغبار، أن إعصارا من داخل جسده هو الذي كان يحركه مثل البندول، ثم تلاشى العالم من أمامه.

احتاجوا لعشرين رجلا لحمل الجسد الضخم الذي تكوم في منتصف حلقة الرقص، مثل عربة قطار خرج عن السكة، وانقلبت فجأة رأسا على عقب، وضعوه في الهواء بعيدا عن غبار الحلقة بجانب حلقة الواعظ الديني، وضع أحدهم اذنه على صدر الشرطي، فسمع الدقات الاعصارية للقلب، فطلب

منهم تركه، وانه يحتاج لبعض الهواء النقي ليستعيد وعيه، فتح عينيه بعد قليل، شاعرا ان الحبل السري الذي يربطه بالعالم قد انقطع فجأة حين وجد نفسه بعيدا عن حلقة الرقص، بدأ يستعيد وعيه بالعالم، على صوت الواعظ الديني، الذي كانت تشتعل النيران في كل كلمة يلقيها على مسامع الحشد الخائف من حوله، كان يتحدث عن عذاب القبر، يا للكارثة شعر الرقيب عبد الدائم أن عذاب القبر كان شبيها في تلك اللحظة بالعذاب اليومي للدنيا نفسها. رفع رجله عاليا ليتأكد أنها تعمل، فاكتشف أنه فقد بنطاله الضخم! يا للكارثة! كان يرتدي سروالا ضخما ممزقا، لابد أنهم شاهدوا عورته في حلقة الرقص! شاهدوا عورة السلطة! كانت زوجته تطلب منه دائما ترك هذا السروال لتقوم باصلاحه، لكنه كان يتعلل دائما انه متعجل وانه سيشتري سروالا اخر حتى تتمكن زوجته من رتق هذا السروال دون ان يضطر هو للبقاء عاريا عدة ساعات حتى تكمل زوجته المهمة. رفع جسده بصعوبة، وجلس بعض الوقت ليستعيد أنفاسه، الواعظ الديني يتحدث عن عذاب القبر، الرقص هنا حرام، الغناء حرام، الحياة حرام. استخدم كل طاقته ليقف على قدميه، لن يصدقه أحد حين يعلن أن الأمن مستتب، لأنه يسير بدون بنطال وبسروال ابيض متسخ وممزق، حين يكون مرتديا كامل ملابسه، يشعر احيانا أن احدا لا يصدقه، فكيف يكون الحال وهو نصف عار، حمد الله أن الحلقة بسبب الغبار الشديد تصبح الرؤية فيها محدودة، سيرتدي سروال الغبار ويقتحم الحلقة بحثا عن بنطاله الضائع، حين إندفع داخل الحلقة، واخترقت ضربات الدف ذاكرته، شعر أن ارواح المشاركين في الرقص كانت تطفو

فوق الغبار، يتخلص الجميع من أجسادهم، شعر كأنه يقف فوق رأسه الضخم لينظر إلى العالم من حوله، رأى من على البعد صالحين لا يزال يمسك بمكبر الصوت مخاطبا ابنه المتمرد، ورأى رجل النار الذي يتحدث عن عذاب القبر، رأى باعة الخضروات وباعة الحبال وباعة الألعاب البلاستيكية التي تتحطم عند اول تجربة. رأى باعة الديوك والدجاج،وباعة كل شيء الذين يفترشون ببضائعهم الأرض، تذكر أنه لم يشتر ملابس العيد لآولاده وزوجته، لم يحمل هما كثيرا، بإمكانه دائما الاستدانة، ربما سيطلب صديقه المهرب أن يرافقه في رحلة سريعة قبل العيد، سيتمكن من شراء طلبات العيد كلها دون أن يضطر للإستدانة. بدأت كل الهموم اليومية تتلاشى من ذاكرته مع تصاعد إعصار الجسد، الذي بدأ يدور به، حتى يتلاشى جسده تماما في الغبار، قبل أن يرتفع الغبار وايقاع الدف فوق سحابة روحه الضخمة، التي تحلّق فوق الجميع.

شعر بالرجال العشرين الذين يحملون جسده مثل نمال تتجمع حول جيفة بقرة ضخمة، ألقوا به في النار، في حلقة عذاب القبر! إلتهمت النار بسرعة الغبار الذي يحجب الرؤية من حوله، بقي في مكانه خائفا من فحص جسده، لحصر خسائر الجولة الجديدة. تجرأ في النهاية لرفع رجله، كان نصفه الأسفل عاريا، ضاع سرواله الممزق، لحسن حظه كان قميصه الرسمي موجودا بكامل الشرائط العسكرية على الكتف، يمكن للجنون أن يجرّدك من بنطالك وسروالك، لكن التجريد من شرائط الرتبة يحتاج لمحكمة عسكرية. تحسس عضوه الذكري الرسمي، فوجده نائما في غبار السلطة، بدا ملمس

خصيتيه متحجرا بسبب الغبار وقد تضاعف حجمهما مثل عجلات مدفع قديم. إكتشف وجود نبتة نعناع نمت فوق غبار خصيتيه، نزعها وألقاها بقوة فسقطت فوق رأس داعية عذاب القبر، الذي كان واعيا لحيل الشيطان، فقرر ألا يسمح له بإفساد مزاجه، مد يده بهدوء ليلتقط النبتة من فوق رأسه ويلقى بها بكل قوته خارج الحلقة.

عرف الرقيب عبد الدائم انه سيفقد كل شيء إن غامر بالعودة إلى الحلقة عاريا، لا يستره شيء سوى بندقيته، خلع القميص ولفه حول وسطه لستر عورته، اتخذ قرارا أن يقاوم رغبته في الرقص ويذهب فقط للبحث عن ملابسه، اكتشف فائدة للبندقية التي ظل يعلقها فوق كتفه لعدة سنوات، قررأن يقاوم ضعف جسده بإعلان الحرب. وقف قريبا من حلقة الرقص واطلق طلقة في الهواء اخترقت الغبار وضاعت في السماء. لم ينتبه لها أحد في حمى ضربات الدف وغبار الرقص، لكنه شعر بها تشد من أزره وتعيد له مبادرة السلطة على جسده وعلى العالم، دون أن يلاحظ أنه لم يكن محتاجا لإعلان الحرب لكي يسيطر على ضعف روحه في دوامة الرقص، فالحرب كانت معلنة في كل شيء من حوله، حتى الأشجار من حوله كانت تبدو في حالة حرب.

ما أن خطا إلى داخل الحلقة حتى شعر بجسده الضخم يختفي منه، ثم وجد نفسه يتسلق الغبار مثل المرة السابقة ليرى بعينيه كيف كان الامن مستتبا خارج الحلقة، وكل انسان مشغول في مشاكله. لا أحد يحتاج لخدمات الشرطة، حتى الباعة حين يتشاجرون مع زبائنهم، يتدخل آخرون من الباعة

او من المتسوقين ويجدون حلا لكل المشاكل. بدأ الغبار المتصاعد مثل نبتة فطر عش غراب عملاقة، يسحب إعصار جسده إلى الاسفل. حين إستعاد الوعي وجد نفسه مرة اخرى بجوار حلقة عذاب القبر، هذه المرة كان بالفعل عاريا تماما لا تستره سوى البندقية! حتى الشرائط العسكرية فوق كتفيه ضاعت مع القميص! يا للكارثة: لحلقة الرقص قوة محكمة عسكرية! ستكون الخطوة القادمة هي طرده من الخدمة بعد أن تم تجريده في محكمة الغبار من رتبته العسكرية. اكتشف أنه لم يكن عاريا تماما! بجانب البندقية، إحتفظ بالقبعة العسكرية فوق رأسه، هذه عدالة الغبار، لا يمكن تجريده من كل شيء مرة واحدة.

عرف أنه لن يستطيع العودة لحلقة الرقص مرة أخرى للبحث عن ملابسه قبل أن تنفض الحلقة، فكر قليلا وطلب من صبي مر بجانبه أن يحضر له قطعة حبل أو قماش. أحضر له الصبي قطعة حبل، شعر أن عليه الاختيار بين ستر عورته الأمامية والخلفية. مؤخرته الضخمة ربما لن تثير اهتمام أحد مثلما سيفعل عضوه الذكري الضخم، وضع القبعة فوقه وأحكم ربطها حول وسطه بالحبل. واستعد لجولة جديدة في المكان للتأكد أن الأمن مستتب، الشرطي الجيد لن يشغله شيء عن عمله. لابد ان مؤامرة فقدانه لملابسه دبرتها جهة تريد استغلال الفوضى التي ستنجم عن غياب السلطة، قرر أن يفسد على تلك الجهة مخططها ويواصل تفقد المكان خاصة أنه هو الوحيد الذي بقي من زملائه لتأمين المكان، قرّر: أن سلطة عارية ستكون أفضل من سلطة لا وجود لها! لن يقترب من حلقة المديح ولا من مكان المفاوضات

مع المتمرد. سيحاول شراء جلباب ان وجد من يمكنه الاستدانة منه من الباعة الجوالة.

عبر الشاويس عبدالدائم قلب السوق، لم يلتفت خلفه واحتفظ برأسه مرفوعا، يجب ان يظل رأس رمز السلطة مرفوعا، عري جسده ليس سببا لكي تطأطئ السلطة رأسها وتعطي الفرصة لأعدائها. لم ينتبه للمظاهرة التي بدأت تتكون من خلفه، فقد كان كل شخص يعبر أمامه وهو يتأكد من استتباب الأمن، يترك عمله ويتبع الرجل العاري! الذي يستر عورته بقبعة عسكرية، قذفه الأطفال بالحجارة، وزفوه مثل مجنون، بدا سعيدا لتشبثه الحكيم في القيادة، القائد يجب ان يكون في المقدمة، حتى إن كان لا يضع قبعته العسكرية فوق رأسه، بل فوق عضوه الذكري، القائد الحقيقي يقود الناس حتى لو انقلبت الدنيا رأسا على عقب، قد يحدث زلزال أو فيضان يمسح القرية من الوجود، حدث ذلك قبل أعوام، كانت هناك خسائر كبيرة، لأنه لم توجد القيادة التي تتقدم الصفوف لحظة الكارثة، الآن هو يتقدم الصفوف حتى وان لم تكن هناك كارثة بنفس المستوى، لكنه يثبت أنه يرتفع فوق مشاكله الشخصية ليظل يحمل القرية وأهلها في حدقات عيونه!

لم ينتبه للأغنية التي كان يرددها الأطفال من خلفه وهي تمجّد جنونه العاري، لوّح لهم بيده محييا دون أن يلتفت إلى الخلف، انه قائد حقيقي، يعبّر عن تقديره للناس حتى وان لم يراهم. توقف أمام بائع يضع كومة من الملابس أمامه، نظر له البائع باندهاش ولم يقل شيئا، اختار أضخم جلباب عثر عليه، كان يريد ان يشرح للبائع المرتعب قصته بصورة بسيطة حتى

يصدقه البائع، أشار لحلقة المديح وقال: ملابسي هناك، ضاعت في الغبار! ازداد رعب البائع، حتى أنه جمع بقية الملابس وحشاها داخل جوال بلاستيكي، ومد يده يريد أخذ الجلباب الذي يحمله عبد الدائم في يده، قال عبد الدائم: سأدفع لك لاحقا! حين يندمج الإنسان في الرقص، يفقد ملابسه أحيانا! كان رعب البائع يزداد كلما حاول عبد الدائم شرح ما حدث له، في النهاية، مد البائع يده بسرعة واختطف الجلباب ولاذ بالفرار! تبعه عبد الدائم وهو يصرخ: توقف أنا رئيس الشرطة! أنا آمرك بالتوقف! إذا لم تتوقف سأطلق عليك النار.

انتحال المجنون لشخصية رئيس الشرطة جعل البائع يضاعف سرعة فراره حتى اختفى من الأنظار في لمح البصر، عاد عبد الدائم يقود المسيرة لحين ظهور بائع آخر يصدّق قصته أو حتى ينجلي غبار حلقة الرقص!

فجأة عبرت المسيرة بمحاذاة مكان المفاوضات، طغى صوت مرورها على صوت مكبر الصوت الذي يتحدث فيه العم صالحين مع ولده، كان منظر المسيرة التي يقودها رجل عار يغطي عورته بقبعة عسكرية لافتا، حتى أن الجميع توقفوا عن الكلام حتى عبر آخر طفل في قافلة الغبار.

قال العم صالحين يشرح لولده في مكبر الصوت: ديل أولاد وناس ماشين خلف زول عريان! ما تأكدت مين الزول دة! يمكن واحد فقد عقله، الناس الأيام دي كلها بقت ماشة وهي تتكلم مع نفسها. الريح ود حاج بدر عندهم ولد كان شاطر يمكن كان دفعتك، مشى دخل الجامعة ما قدر يواصل الدراسة، ظروف أهله كانت صعبة ما قدر يواصل دراسته، رجع البلد في

الأول كان بيساعد أبوه في الزراعة، بعد فترة مشى يفتش الدهب، قبل ما يقضي هناك شهر واحد رجعوه، قالوا مسك ليه عكاز وبقى يضرب الناس، مسكوه وجابوه هنا، أهله ودوه للفقراء، ربطوه وبقو يقرأوا ليه القرآن. بقى هسع هادئ لكن ما يمرق من البيت ، الدكتور وصاهم يكون مربوط دائما. أخوه مصطفى خلى الزراعة ومشى الدهب، مصطفى من زمان يحب الحركة، ما يحب يقعد في مكان واحد، يرجع من الدهب تلقاه حايم في الحلة يزور الناس ويمشي الأسواق، دائما يقول أبوي عنده ولدين، واحد مربوط والتاني مطلوق!

هسع يا عثمان لازم تفكر تجي تستقر، أخوك تاني ما حيقدر يقعد في البلد دي، ما دام عرف درب الدهب، كنت متمني يرجع يواصل الدراسة. تفتيش الدهب ضياع عمر، ناس قليلين بيكونوا محظوظين يلقوا دهب ويرجعوا يستقروا يعملوا ليهم شغل تاني، معظم الناس الشغالة في الدهب، شغالة رزق اليوم باليوم يا دوب مصاريف الاكل والشراب والاتصالات، غير الامراض والعقارب، قبل ايام قالوا في ولد صغير من الحلة بالشرق مات بلدغة ثعبان، أظنه أب دفان، مسكين لغاية يوصلوه المستشفى السم كان سرح في جسمه، وفي ولدين ماتوا قبل فترة أنهدمت فوقهم البئر، تفتيش عشوائي ما فيه اي نظام أمان، ربنا يحفظ اولادنا وأولاد الناس، الناس ضاقت بيها الحياة، قبل ايام قابلت في السوق أولاد قالوا مسافرين ليبيا بالصحراء، فيهم واحد ولد حاج سيدأحمد الكنت بزرع معاه زمان في حواشة المشروع التعاوني، قلت ليه يا ولدي السفر في الخلاء خطر ولو داير تقطع البحر قالوا مراكب صغيرة وناس كتيرين كل يوم يغرقوا، قال لي يا عمي، هنا موت وهناك موت، في

السفر على الاقل في أمل الواحد لو وصل اي مكان يقدر يضمن مستقبله، هنا أمل مافي. وبدون أمل مافي فرق بين حياة وموت.

ممكن تمشي العمرة لو داير يا ولدي يمكن تلقى شغل تصلح أحوالك، لكن نحن بقينا محتاجين ليك جنبنا أكتر من حوجتنا للمال. نحن ذاتنا طلباتنا ما كتيرة لو الصحة بقت كويسة، ما بنحتاج لشئ، أمك صحتها اتحسنت، الدكتور قال تحافظ شوية وبتبقى كويسة، الاكل والشراب ما مشكلة، بعدكم منا ياهو المشكلة. تعال أزرع الحواشة يا ولدي وعرس بت عمتك، لو حسين ربنا فتحها معاه ولقى شوية دهب حيجي يعمل معاك مشروع صغير والاحوال حتتصلح يا ولدي.

أحضر الصبية طعام الغداء من القرية. كان شيخ علي قد استعاد بعض هدوئه، لم يعد ينظر إلى الساعة كثيرا. حين لاحظ حاج النور ان شيخ علي لم يعد متعجلا ولم يعد يتحدث عن ناس الجيش،أعلن أنه كان بحاجة إلى عطلة! نرتاح شوية من مشاكل انعدام الجازولين واضراب المعلمين ومشاكل النسوان في البيت!

ضحك شيخ النور وقال: عطلة من السرقة واللف والدوران! لو أنا محلك دي فرصة كويسة بعيد من نسوانك تشوف ليك زوجة جديدة من الناحية دي!

بقي شيخ علي يفكر قليلا كأن الفكرة راقته ثم اوضح: يا النور ياأخي انت مصدق كلام الفساد والسرقة؟ وينه المال اليسرقوه، البلد دي نحن استلمناها خزنتها معشعش فيها العنكبوت. طلعنا البترول وعملنا السدود والشوارع.

قال شيخ النور: اريتكم ما طلعتوه، كان قعد في الأرض للاجيال الجديدة،

بدل تبيعوه وتوزعوا القروش بينكم، اسياده ناس الجنوب حرمتوهم منه، ما شافوا من بترولهم الا الرصاص الاشتريتوه من قروش البترول! وكت لقوكم بتكتلوهم بحقهم قالوا آدي طرفنا من بلدكم.

صمت شيخ علي قليلا وقال: يا النور بكرة العيد، هلال العيد ثبتت رؤيته في السعودية . لو المشكلة ما إنتهت اليوم أنا حأمشي، بكرة متوقع ضيوف من الخرطوم.

كان الواعظ الديني يواصل التذكير بعذاب الآخرة، الوجوه من حوله كانت تحدق في الفراغ وقد أرهقها التعذيب، يتراجع مع مرور الزمن إحساسها بالعالم من حولها، يستعيد الحضور وعيا مشوشا بالعالم حين يرتفع صوت بكاء رضيع تعبر به أمه من أمام حلقة النار. يتحسسون رؤوسهم ليتأكدوا أنهم لا يزالون أحياء، وما أن تبتعد أصوات بكاء الطفل حتى يستعيد الحشد حول الواعظ لاوعيه بالعالم، فجأة جعلت صرخة عابرة الحشد كله يستيقظ برعب حتى أن البعض جروا في كل الاتجاهات، كانت المسيرة التي تحولت إلى قطار تعبر أمام الحشد في تلك اللحظة. المسيرة كانت لا تزال بقيادة السلطة العارية. لا يسترها سوى قبعة عسكرية. كان صبي صغير هو صاحب فكرة تحويل المسيرة لتأخذ شكل قطار، تحرك المشاركون خلف بعضهم كل واحد يمسك في ظهر الشخص الذي يسير أمامه تاركين الشاويس عبدالدائم في المقدمة. أصبحت المسيرة طويلة، مثل حبل، كان كل شخص مشارك يردد شيئا مختلفا، البعص يرددون هتافات ضد السلطة، نفس السلطة العارية التي يتعلقون بمؤخرتها وهي تقود المسيرة، والبعض يرددون

أغنيات قديمة، والبعض ينادون على شخص غير معروف.

يعبر الشاويس عبدالدائم بجانب حلقة المداحين الخالية، لا تثير فيه كومة الملابس الرسمية بجانب الحلقة اية مشاعر، يواصل دور قائد القطار الذي يعبر في الغبار. كان المشاركون في حلقة المديح قد توقفوا مع أذان المغرب لتناول وجبة الإفطار، فيما انضم بعضهم إلى مسيرة القطار، كان صبي إنضم إلى المسيرة هو الذي صرخ بقوة مقلدا صوت صفارة قطار حين عبرت المسيرة بجوار حلقة الواعظ الديني، هرب بعض حضور الحلقة الذين استعادوا وعيا مفاجئا بالعالم، إلى أبعد نقطة يمكن أن تحملهم أقدامهم اليها بعيدا عن الجحيم، بقي البعض حول الواعظ الديني وانضم البقية إلى المسيرة.عبرت المسيرة الطويلة الميدان ودارت حول المخزن القديم الذي يقبع في داخله الشاب المتمرد، وحين عبرت للمرة الثانية أمام حلقة الواعظ، لاذ بالفرار من الجحيم عدد آخر من حضور الحلقة لدى تعالي نفس صوت صفارة القطار، إنضم البعض للمسيرة التي أصبحت طويلة جدا حتى لم يعد متيسرا رؤية مؤخرتها. إنضم للمسيرة عدد كبير من المارة والباعة الجوالة الذين حزموا بضائعهم لدى بدء حلول الظلام، ووضعوها جانبا لاستئناف عملهم في الصباح، حين عبرت بعد حلول الظلام أمام حلقة الواعظ الديني لاذ بقية حضور الحلقة بالفرار وإنضموا للمسيرة، كأن الظلام الزاحف جعل قبضة حديث الواعظ عليهم تتراخى، واصل الواعظ حديثه بنفس حماسته، رغم إنفضاض حلقة المستمعين من حوله، دارت المسيرة الطويلة حول القرية. كان يتعالى أحيانا صراخ شخص سقط في حفرة أو جدول ماء، لكن المسيرة لم تتوقف، كانت سرعان ما تستعيد قوتها، وتواصل طريقها.

22

قال شيخ النور: يا أخوانا في حاجة غريبة، لي فترة بشعر أن الحاجات البتحصل في الدنيا دي، حصلت قبل كدة! زي كأن الزمن رجع ست أو سبع سنين للخلف! نفس المحصول سبعة عشر جوال شمار وواحد وعشرين جوال فول حصدناه قبل سنتين. ولد فاطمة بتي دة أنا متأكد طهّرناه مرتين!

قال فارس: يا شيخ النور قول بسم الله! انت الظاهر خلاص، المخ بقى يفوّت وبعد شوية الا يربطوك عشان ما تمرق تحوم في الحلة. المشكلة قالوا مع الخرف الراجل بيدور يتزوج تاني!

قال شيخ النور: في نخلة كانت وقعت أيام الهبوب قبل الخريف، قبل يومين لقيتها واقفة في مكانها!

شعر أن أحدا لم يهتم بكلامه، كان الطاهر مشغولا بفتل حبل من كومة من نبات الحلفاء بجانبه، وحاج سعيد شكى من وجع في ظهره واستغرق في النوم فوق حصير السعف. فارس أصلح من وضع عمامته القديمة فوق رأسه وقال أنه سيعود بعد قليل.

فجأة رأينا حمارا يقتحم حوش المسيد داخلا، نادى حاج النور بصوت عال طالبا من صاحب الحمار إيقافه في الخارج، لكن صاحبه لم يمتثل، حتى توقف حماره بجانبنا، كان شيخ النور قد جلس أرضا وهو يسبّح بعد أن صلى ركعتين بعد صلاة المغرب.

قال عبد الفتّاح: ما تضيع وقتك يا حاج! قيامة مافي!

رأيت شيخ النور ينظر اليه بذهول، ثم نظر إليّ كأنه يعرف أنني الوحيد الذي استطيع أن أفسّر ما يحدث من حوله.

دار عبد الفتاح بحماره داخل حوش المسيد ثم خرج من باب الفناء الآخر، دون أن يتوقف عن مخاطبة وشتم كل شيء تقع عليه عيناه.

قال شيخ النور: دة رجع تاني للشراب، مش قالوا دخل مع ناس الحكومة واحواله اتصلحت!

قلت: يعني المفلسين بس هم البيشربوا؟ ما هسع هو بقى زول غني وأحواله إتصلحت، عشان كدة محتاج يصلّح رأسه ! بعدين هو في الصباح مع الحكومة، وبالليل واعظ قطاع خاص!

قال شيخ النور وكان مستغرقا في التفكيركأنه يريد تذكر شيء ما يستعصي على ذاكرته: مش قالوا عاوز يتزوج نورا البنت المدرسة؟ ولا ما حصل إتفاق؟

فكرت قليلا ولم أعرف كيف أرد، كان شيخ النور ينظر في وجهي كأنه يشك أنني وراء شيء ما لا يجد له تفسيرا، النخلة التي نهضت بعد سقوطها، والسنين التي تشابه بعضها، ورياح الهبوب نفسها التي كأنها تسير في ركاب الزمان نفسه، الزمان الذي لا يسير إلى الأمام بل في دوامات تظل تدور في نفس مكانها، فتظل الحياة في نفس مكانها، تمتلئ سبائط التمر، ويتفتح نوار شجر الليمون وأشجار النيم، ثم تهب الرياح، تعبر فوق هامات النخيل، فيسقط كل شيء أرضا، ثم تعود الدورة نفسها. وعبد الفتاح الذي أقلع عن الشراب وتزوج، ثم إنسحب الزمن فجأة من حياته، مثلما ينسحب الحمار من

اسفل جسده السكران أحيانا ويتركه يسقط أرضا، ويخلد للنوم في عراء ليل الشتاء الطويل. ينسحب الزمان من فوق تفاصيل حياته، ويعيده إلى نقطة البداية، التي لا تؤدي إلى أية نهاية . يجرّده من كل شيء حتى من الصور التي يحتفظ بها في ركن قصي في ذاكرته، حتى لا تمسحها إستيكة البهجة المسائية.

أنقذني الشاويش الذي فقد ملابسه وعقله، عبرت في تلك اللحظة المسيرة الطويلة، أمام المسيد، نظرت إلى حاج النور فوجدته يستعيد صفاء وجهه، بدا كأنه يستعيد الزمن من حوله وقال: الشاويش جن، لسة حايم والناس ديل وراه ليهم أكتر من سبعة يوم!

قلت كأنني امعن في الاتجاه المعاكس لوعي شيخ النور المتنامي بتغيرات الزمن من حوله، قلت: ماذا حدث لعثمان ولد صالحين؟

قال شيخ النور: قضى يوم واحد مع اهله ثم حضر ناس الجيش وألقوا القبض عليه، كذب علينا شيخ علي وقال ان احدا لن يتعرض له وأنه اتصل بناس الجيش! مسكينة أم عثمان، بعد ما صحتها إتحسنت وكت ولدها رجع تاني مرضت، وعرفت من صالحين أن حالتها أصبحت سيئة جدا!

قلت والحل، ما تشوف شيخ علي يمكن يقدر يعمل شئ!

قال شيخ النور : قابلته في صلاة الجمعة، قال لي حأتصل تاني بناس الحكومة أول ما عطلة العيد تنتهي، وأحاول القى حل. لكن أنا لا اثق فيهم، غالبا حيحاكموا عثمان. ديل ناس ما عندهم رحمة.

سعدت لأن حاج سعيد إستيقظ في تلك اللحظة. لم تكن تبد عليه أية إهتمام بتغيرات الزمن أو عودته إلى الوراء. لن يتوقع جديدا سوى عاد الزمن إلى الوراء أو هرول إلى الأمام المجهول أو حتى تجمد في مكانه وحوّل العالم إلى ثلاجة ذكريات. لو أنه عرف أنه يعيش نفس الزمن الذي عاشه من قبل ربما سيشعر أكثر بالإلفة. على الأقل سيتعامل مع أشياء يعرفها.

نظر إلينا وضحك وقال: سمعتوا حكاية فارس مع سليمان التاجر! كأنه شعر بفرحي من حديثه معنا، بدأ يحكي دون أن ينتظر منا سؤالا:

سليمان التاجر كان يعرض للبيع تفاحا احضره له احدهم من الخرطوم. فارس انتهز فرصة انشغال سليمان التاجر ببيع شيء لاحدى النساء واختطف حبة تفاح وهرب.

خرج سليمان التاجر ليطارده لكنه كان قد اختفى.

كنت انا جالسا في الفراندة امام الدكان اشاهد سرقة التفاحة. قال سليمان التاجر: ابن الكلب دة من خلى الحكومة وفلّس بقى سعران رجع يخطف الحاجات زي زمان.

فارس رجع بعد اكل التفاحة جة قعد جنبي. قال داير ينزل الانتخابات. قلت ليه رمزك يكون التفاحة. سليمان كل شوية يقول ليه : ياخينا جيب الف جنيه تمن التفاحة، وفارس يقول ليه دي تفاحة ولا عربية هينو!

وفارس كل شوية يمشى يدخل الحلة ويجي راجع بعد شوية، سليمان يقول ليه جيب تمن التفاحة. في المرة الأخيرة وكت فارس مشى، قلت ليه ما خلاص خلي ليه تمن التفاحة دي اعتبرها كرامة.

سليمان قال: ما انا خايفه يجي يشيل واحد تاني!

ضحك شيخ النور وقال: سليمان كلامه صاح لو سكت ليه حيجي يلقط التفاح كله.

قال حاج سعيد : الزول جنن الحلة يمكن لو مشى نزل الانتخابات ينشغل شوية او ناس الحكومة يسكتوه بقرشين!

قال شيخ النور: ما اظنه يقدر يمشي انتخابات لأن حق المواصلات عشان يمشي يتسجل ورسوم التسجيل ما عنده.

قال حاج سعيد:

طيب ما نعمل ليه كشف! بدل يقعد هنا يكشف حالنا!

ضحك شيخ النور وقال: انا ما عندي مانع. هو اصلا ما حيفوز في الانتخابات، لكن ممكن يساومهم ويمرق ليه بقرشين. يشتري ليه تراكتر ولا عربية يشتغل فيها!

قال شيخ سعيد: ما دام نحن حنمول ليه الحملة الانتخابية. نشترط عليه لو ادوه حاجة يشتري ليه تراكتر ويبعد مننا!

خرجنا في حملة فارس الانتخابية .

قال سليمان التاجر: ما بديه مليم أحمر، الأول يجي يدفع لي تمن التفاحة ، دة غير الحاجات الاشتراها بالدين من سنين، وكلما اقول ليه الحساب يقول لي أنا قرّبت أبقى وزير وأول حاجة أعملها وقت أقعد في كرسي الوزارة بأكتب ليك شيك بحسابك كله. قلت ليه أوع الشيك يطير! قال لي وين في وزير بيكتب شيك طاير! قلت ليه الوزراء ذاتهم بيطيروا خليك من شيكاتهم!!

قال شيخ النور: أعمل ليه (جدولة) للديون وأكتب التفاحة معاها! إنشاء الله بعد يفوز في الانتخابات حيدفع ليك!

قال سليمان: والضمان شنو يفوز في الانتخابات؟ حيمشي ينزل ضد الناس العلموه السرقة، كيفن يفوز عليهم؟ حتى لو البلد كلها صوتت ليه، حيغيروا الصندوق!

قال شيخ النور: لأ هو ما حيصل مرحلة الصندوق! هو بس حيستعرض قوته، يعمل ليه ليلة انتخابية وبعد داك يتفاوض معاهم ويمرق ليه بقرشين.

23

كان الجو لطيفا جدا، أغرقت العالم نسمة قوية عبرت فوق نهر النيل قبل أن تصل إلى القرية. فحملت معها رائحة السمك الميت، ورائحة أشجار الصفصاف، ورائحة زهور البرسيم. بزغ في السماء نجم غريب كان يبدو مختلفا قليلا بلونه الأحمر، كان الجميع يشعرون بالارهاق بعد نهار طويل قائظ، لم يكترث أحد إلى النجم الأحمر ولا إلى الذنب الغريب الذي يلتصق به، بعد صلاة العشاء أخلد البعض إلى النوم فوق حصائر السعف التي أدوا فوقها الصلاة، اليوم آخر ليالي رمضان، لا توجد صلاة تروايح. فيما واصل العم صالحين الحديث مع ولده، كان يتوقف أحيانا كأنما ليعطي عثمان الفرصة ليرد على كلامه. قال العم صالحين:

الناس تعبانة والمستشفيات ما فيها حبوب ملاريا ولا محاليل وريدية، وناس الحكومة بيصرفوا الملايين على انتخابات معروف الفايز فيها مين، رغم ان الناس ما بتمشي التصويت. لكن ناس الحكومة بيملوا الصناديق بالأوراق ويعلنوا في الراديو ان حزبهم فاز، رغم ان مافي زول مترشح غيرهم. ولو قلت البغلة في الابريق، يقبضوك الجماعة بتاعين الأمن ويودوك بيوت الأشباح.

يا ولدي الخراب الحصل في البلد دي تاني مائة سنة ما يتصلح حتى لو مسك الحكم ناس قلبهم على البلد دي. عشان كدة أحسن تمشي. نحن دايرنك تكون جنبنا لكن ما مشكلة ما دام أخوك قريب. إنت سافر، أمشي العمرة.

يمكن ربنا يكون كاتب ليك رزق هناك. لغاية تصلح أحوالك يمكن حال البلد يكون إتعدل، والناس ديل يطيروا في ستين داهية.

فجأة قال صالحين بالنسبة لمشكلتك مع الجماعة ديل، تنفس اعضاء اللجنة الشعبية الصعداء اخيرا، لكن صالحين أعلن بعد فترة صمت:

يا ولدي أعمل ساتر واضرب اللوايطة!!

عندها فقط رأينا عثمان يبرز من خلف الجدار وقد اشرع سلاحه، اطلق عدة زخات كثيفة في الهواء كانت كافية ليلوذ الجميع بالفرار، حكومة ومعارضة، وحتى الذين لم يحددوا أية موقف مع الحكومة أو ضدها، لاذوا ايضا بالفرار،وكان في مقدمة الفارين شيخ علي رئيس اللجنة الشعبية. انجلي المشهد بعد زوال غبار الهروب بعد قليل. لم يبق شيء سوى عدد كبير من الأحذية محلية الصنع والعمائم واللحي المزورة غير المثبتة جيدا، بسبب عجلة الورع. تقدم العم صالحين وأمسك بيد ولده وإتجها في ضوء القمر إلى البيت.

سمعت صوت إطلاق رصاص كثيف. إستيقظت ونظرت حولي في ضوء القمر، كان العالم لا يزال جديدا كأن شيئا فيه لم يستخدم بعد. اختفى رفاق الرحلة. بقيت أنظر حولي مندهشا حين شعرت كأنني نمت في عالم واستيقظت في عالم آخر. سمعت صوت أقدام تجرى من على البعد. تذكرت أننى كنت أشارك مع رفاقي في مسيرة طويلة يتقدمها عسكري عار من ملابسه، كانت تمضي دون هدف قبل أن يغرق كل شيء في الصمت. نظرت بإتجاه السماء فرأيت الإشارة التي ظللت سنوات في انتظارها! كان

عنقود ثريا الشقيقات السبع يتوهج مثل عقد من الأحجار الكريمة في السماء . ورأيت النجم المذنب الأحمر يضيء العالم مثل قمر آخر! تعالى صوت إطلاق الرصاص مرة أخرى! ترددت قليلا هل صوت إطلاق الرصاص هو الاشارة أم ظهور النجم المذنب الأحمر! لم أجد فرقا! ، شعرت بخوف غريب مجرد أن رفعت جسدي من الأرض، نفس الخوف الذي داهمني حين ابتعدت قليلا مع رفاقي من القافلة لنقوم بالبحث عن صيد أو شيء يصلح للأكل، بعد أن تعالى صوت صراخ الأطفال الجوعى، وفجأة حين تعالى هدير الانتينوف! سارعنا الخطى لنعود إلى مكان القافلة! لكننا كنا قد تأخرنا كثيرا. قاومت الايادي الخفية التي كانت تسحبني إلى نوم أشبه بالموت، ورفعت جسدي من الأرض. لم يعد هناك وقت، سيكون لي ثلاث فرص لإعادة الزمن إلى الوراء قبل أن يلتقي ذنب النجم المذنّب الأحمر مع رأسه.

صرخت بصوت لا يخالجه أدنى تردد: أريد أن أعود إلى الزمن ما قبل غارة الانتينوف!

يا للقوة الرهيبة التي نزلت على صوتي! بقي يجلجل في الفضاء ولم يمحه سوى هدير الطائرة. مزّق صوت الطائرة من حولي الفضاء وهي تكافح لتعود من حيث أتت. لكن قوة مجهولة، كانت تعيدها في كل لحظة إلى اللحظة ما بعد وقوع الغارة! كانت قوة الموت، سمعت الصوت الخفي يهمس في وجهي! لا تضيع الوقت، لم يبق الكثير، أنظر إلى النجم الأحمر بدأ الذنب يلتف بإتجاه الرأس!

كرّرت صراخي: أريد عودة الزمن إلى ما قبل غارة الانتينوف!

عاد صوت الطائرة يمزّق صمت العالم. رأيتها تكافح لتعود عبر الزمن إلى حيث أتت، تكاد تحطم جدار الموت، حتى أنني أشعر بالزمن قبل غارة الانتينوف يبدأ في التمدد من حولي! ورياحين الصيف الغابر تفوح في قفار الليل من حولي، لكن الطائرة كانت تتراجع بعد فشلها في إختراق جدار الموت، يشتعل الفضاء بضوء أحمر مثل الحريق من شدة قوة الاصطدام الرهيب. تتراجع الطائرة إلى الخلف قليلا، ثم تنقض مرة اخرى على الجدار دون جدوى.

قال لي الصوت الخفي: أنظر إلى النجم المذنّب. نظرت إلى أعلى ورأيت السماء تكاد تسقط فوق رأسي، اختفت الشقيقات السبع في فضاء الأبد. ورأيت النجم المذنّب يكاد يتحول إلى طوق حين إقترب ذنبه من رأسه.

وقفت لحظة مترددا، نظرت من حولي فلم أر شيئا سوى اشباح الليل التي تدور مع العالم من حولي. شعرت كأنني أقف فوق بساط ريح وجهي القديم، الذي تناثر في المدى من حولي، قبل أن يتلاشى في دوامات الرياح التي حملته بعيدا مع شلالات ضوء النجوم إلى الأبد. وضعت كل ما تبقى من قوتي في صرخة إنفجرت في الفضاء من خلال ينبوع دموعي:

أريد أن أعود إلى اللحظة التي جاءت فيها نورا لتستشيرني في موضوع زواجها.

* * * * *

أحمد الملك

- روائي وقاص سوداني. ولد في مدينة أرقو في الولاية الشمالية عام 1967.
- أصدر أول رواياته: الفرقة الموسيقية عن دار جامعة الخرطوم للنشر عام 1991 في قالب رمزي انتقدت الرواية الحكم العسكري وغياب الحريات في السودان بعد سقوط النظام الديمقراطي عام 1989.
- صدرت روايته الثانية عصافير آخر أيام الخريف عن دار الخرطوم للطباعة والنشر عام 1996. اعتبر بعض النقاد الرواية متأثرة كثيرا بتيار الواقعية السحرية السائد في روايات أمريكا اللاتينية. بينما يرى البعض أنها تضرب في جذور التراث السوداني الغني بأساطيره وتنوع ثقافاته.
- صدرت له مجموعة قصص قصيرة عام 2001 عن دار الأهالي في سوريا بعنوان الموت السادس للعجوز منوفل، أتبعها بروايته الخريف يأتي مع صفاء(المؤسسة العربية للدراسات والنشر) التي تصور حياة ديكتاتور ينفرد بالسلطة لعدة أعوام فيما المجاعة والحروب الأهلية تدمر استقرار وطنه. ويرى بعض النقاد أن أحمد الملك يحكي في روايته قصة عدم الاستقرار في بلاده منذ رحيل الاستعمار الإنجليزي وفشل الحكومات الوطنية في إيجاد حلول لمشاكل السودان المزمنة. صدرت طبعة ثانية للرواية عن دار عزة بالخرطوم كما ترجمت إلى اللغة الفرنسية وصدرت عن دار أكتس صد في العام 2007 ثم صدرت لها ترجمة هولندية في العام 2010 عن دار (دي خوس) للنشر.
- صدرت له عام 2005 رواية قصيرة مع مجموعة قصص بعنوان: نورا ذات الضفائر، عن دار عزة للنشر بالخرطوم. ثم صدرت له بيت في جوبا عن دار الحضارة للنشر بالقاهرة. صدرت له أيضا رواية سبعة غرباء في المدينة ورواية: الحب في مملكة الجنجويد عن دار أوراق للنشر بالقاهرة.
- تُرجم عدد من قصصه القصيرة إلى الهولندية والفرنسية والإنجليزية وصدرت ضمن مجموعات قصصية.

الزمن قبل غارة الأنتينوف

فجأة سمعنا صوت إطلاق رصاص كثيف من على البعد!
كانت ليلة عيد الفطر، العالم يبدو رائعا وناصعا كأنه خُلق في تلك الليلة، هواء الليل مشبع برائحة وضجيج الغرباء، كنت أقطع شارعا طويلا يقبع نجم أحمر في نهايته، أشعر بالناس والأشياء من حولي لكنني لا أرى شيئا، تحس بوجود الأشياء وهي تسبح من حولك في مداراتها، أصوات الأشياء والإحساس بوجودها كان أقوى من مجرد رؤيتها. كأن العالم كان بالفعل كما قال أحد رفاق تلك الليلة، مثل شخص محتضر، يبدو فجأة في لحظاته الأخيرة مليئا بالحياة كأنه سيعمّر ألف عام أخرى، بينما النهاية تقترب بخطى حثيثة من حولنا.
فجأة دوى صوت آذان في القفار، بدأت الأشياء تستعيد وجودها، أشجار السنط تأخذ أماكنها، طرق الحمير والبغال تنشق في الأرض في كل الاتجاهات. جدران البيوت تبرز في رماد ضوء النجوم. لم استطع تبين ان كان الصوت هو أذان العشاء أم الفجر، شيء ما مصاحب للصوت لم نستطيع تحديده كان يوحي وكأن الزمان انتهى، وأن كل شيء يحدث في اللحظة نفسها وفق زمان خاص بكل شيء على حدة. صوت المؤذن نفسه لم يكن يوحي بأنه يعرف إلى أية صلاة كان يدعو الناس، لكنه كان مثل شخص إستيقظ فجأة من النوم ولم يجد وجهه، فقرر أن يشرك العالم من حوله في حلم الرمال المتحركة التي كان غارقا فيها دون أمل .
انتظرت لحظات ألتقط فيها أنفاسي وأعطي الأشياء الفرصة لكي تكمل خروجها من العدم إلى أماكنها التي وجدت فيها منذ الأزل. عندها رأيت في ضوء النجوم الباهت رفاقي في الرحلة، تبدو عليهم لحظات التحول، سمات موتى عائدين من رحلة بعيدة لا يزال غبار نسيانها عالقا في أهداب عيونهم.

الحضارة للنشر